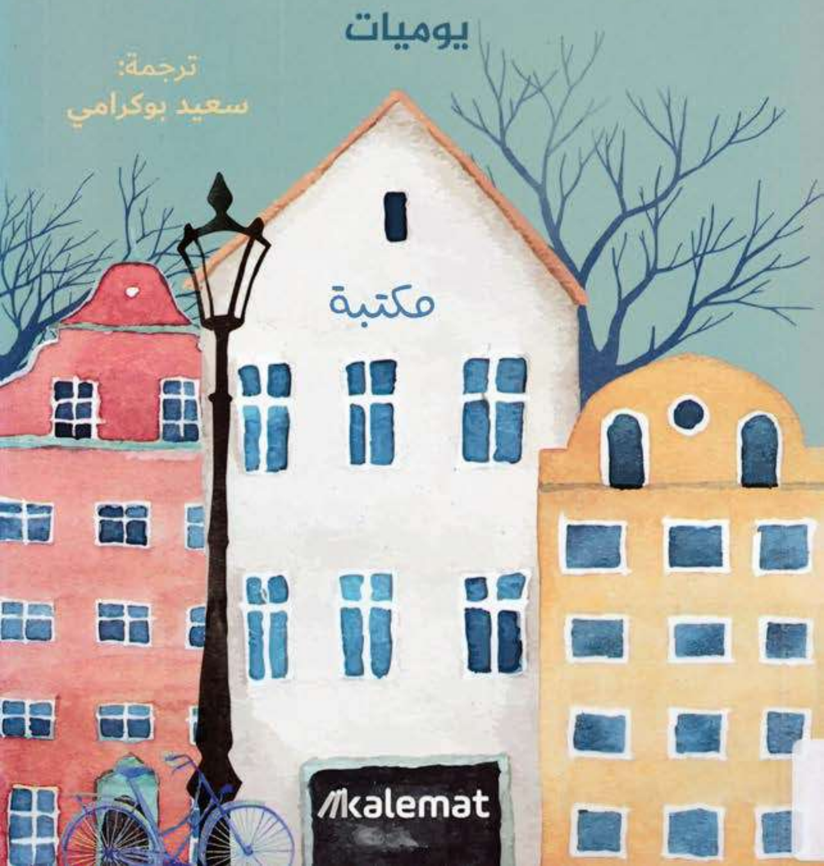
إميلي دو توركهايم

الأمير صاحب الكأس الصغيرة

يوميات

ترجمة:
سعيد بوكرامي



الأمير صاحب الكأس الصغيرة

الأمير صاحب الكأس الصغيرة

إميلي دو توركهايم

Le Prince
à la petite tasse

ترجمة:

سعيد بوكرامي



الأمير صاحب الكأس الصغيرة
Le Prince à la petite tasse

إميلي دو توركهايم

Émile Durkheim

ترجمة:

سعيد بوكرامي

2021

kalemat

إلى دانيال رزا.

تقديم المترجم

هذه حكاية (رزا)، الأمير صاحب الكأس الصغيرة، الهارب من ويلات الحرب وأهوال الهجرة، ومن بلاد العنف إلى مناف لا تعد ولا تحصى.

منذ بداية أوديسته وهو يفقد أيامه السعيدة التي تنثال منه كأوراق الخريف.. يفقد الناس الذين أحبّهم والأشياء الثمينة، يفقد الأسرة والوطن، ويبقى مُحلّقًا بين غابات وجبال وبحار وسجون. يحاول أن يحط كطائر مُهَجَّر فوق غصن أو عش، لكنه في أغلب الأحيان يلاقي الحواجز والضغوطات. وفي النهاية، لم يستطع الاستقرار إلا بمساعدة قلوب رحيمة استضافته في بيتها، واعتنت به إلى أن أصبح قادرًا على العيش بكرامة وحرية.

حكاية مؤلمة عن حروب مجنونة، ومنافٍ موصدة ومحاصرة لا تسمح للأحياء بعبور حدودها والاستقرار فيها، منافٍ أشد قسوة من الحرب نفسها.

تكتب إميلي دوتوركهايم هذه الحكاية بلغة شاعرية لا تشبه إلا نفسها، تتماهى مع طريقة سرد اليوميات، حيث يغلب الوصف والجمل القصيرة، لكن الكاتبة تبحث في كتابتها عن تماثل حقيقي

مع الواقع بصدق وحب تارة، وبقلق وحزن تارة أخرى، هدفها توثيق حالة إنسانية؛ لذا نجد لغتها في بعض الأحيان عارية من تلوينات البلاغة، تنقل الواقع كما هو قلبًا وقالبًا، فيأتي تارة جارحًا وصارخًا ومفجعًا، وتارة أخرى مداويًا وحميميًا ومبهجًا وشاعريًا ومطعمًا بنصوص شعرية بديعة.

يثير عمل الكاتبة الفرنسية إميلي دوتوكهايم أسئلة كثيرة، مثل قيمة الشهادة في الأدب وقوة كتابتها. لا يمكن اختزال عملها إلى مجرد يوميات مكيفة في إطار سردي، بل إن كتابتها ترقى إلى مرتبة الشهادة في الأدب.

تستخدم إميلي صوت ضميرها وأصوات من يشاركونها حياتها.. هذه الأصوات هي وحدها التي تملك القدرة على إعطاء الحقيقة عن العالم؛ لهذا تتخذ من شخصية رزا ذريعة للتنديد بالحرب ومشاكل المهاجرين اللاجئين وصعوبة اندماجهم في مجتمع يرفضهم تقريبًا.

يعدّ بطل الرواية «رزا» الشاب الأفغاني القادم من جحيم الحرب والمارّ بأهوال العبور من منفى إلى منفى بطريقة سرية مؤلمة وفجائعية.. هذا الصوت المجروح هو ممثل لأصوات اللاجئين الذين كانوا وما زالوا ضحايا لحرب غريبة عنهم، شوهت ذاكرتهم ووجدانهم، ودمرت كل السبل ليعيشوا حياة كريمة برفقة أسرهم، وهي التي دفعتهم إلى المغامرة بأرواحهم لعبور الحدود والحواجز المحاصرة والوديان والبحار المميتة.

هـذا أدب شـجاع يسـتنكر أشـياء كثيـرة دمـرت القيـم الإنسـانية. وبالمقابل، توفـر لنـا إميلـي قيمـة أدبيـة وجماليـة مـن خـلال التلاعب بالسـرد ووجهـات النظـر غيـر العاديـة لإنسـان نكتشـفه تدريجيًـا برفقـة الكاتبـة، ونعيـد اكتشـافه مـن خـلال حياتـه اليوميـة القاسـية، لأن الطابـع التدوينـي لليوميـات يمنحنـا هـذا الوعـي كمـا لـو أننـا نعيش، نحـن أنفسـنا، تفاصيـل إقامـة رزا وتحولاتـه، يومًـا بعـد يـوم، وحدثًـا بعـد حـدث.

تقـدم إميلـي الواقـع فـي درجتـه الصفـر دون مسـاحيق لتظهـر لنـا وجوهـه وأقنعتـه كلهـا: تشـوهات الحـرب وحيـاة التشـرد بعدهـا، أوضـاع اللاجئيـن فـي فرنسـا، الرحلـة الشـاقة والقاتلـة التـي يخوضونهـا بأجسـادهم وأرواحهـم لكـي يبقـوا علـى قيـد الحيـاة.

قالـت الروائيـة النوبليـة سـفيتلانا أليكيفيتـش أثنـاء تسـلمها جائـزة نوبـل أمـام الأكاديميـة السـويدية: «كـم مـن الروايـات تختفـي دون أثـر لأننـا لـم نعـرف كيـف نسـتمع إلـى العالـم؟». هنـاك شـبه كبيـر بيـن كتابـة سـفيتلانا أليكيفيتـش وإميلـي دوتوركهايـم يبـرز هـذا التماهـي فـي روايـة الحقيقـة حـول العالـم، سـواء بلغـة توثيقيـة أو أدبيـة، لأن المهـم هـو أن نكتـب صـوت العالـم. كيفمـا كان القالـب الأدبـي، فيجـب أن يكـون المحتـوى أدبًـا مقلقًـا ومزعجًـا يأبـى الاسـتكانة وإراحـة الضميـر، يتجـاوز الصمـت والمسـكوت عنـه لكشـف الحقيقـة التـي قـد تصـدم القـارئ وترجّـه رجًّـا كـي يعيـد النظـر إلـى العالـم بعيـن مغايـرة.

الحظ

في أحد الأيام، قلت لأسرتي:

«ينام الآلاف في الشوارع، ويعيشون دون مأوى. ربما، بمقدورنا أن نستضيف أحدهم للإقامة في منزلنا!»

قال فابريس: «نعم، نحتاج فقط إلى شراء سرير»

وقال ابننا ماريوس: «يجب أن نتعلم لغته قبل أن يحضر إلى منزلنا»

أضاف أخوه الأصغر نوح: «يجب، على الخصوص، أن نعلمه لعبة الورق، لأننا نحب لعب الورق!»

بعد بضعة أسابيع، وصل رزا إلى المنزل. ماذا كان يعني له أن يحضر إلى منزلنا؟ هل تخيل وجوهنا، كما حاولت، لأسابيع، أن أتخيل وجهه؟ في الليل، كنت أرى باستمرار الحلم السخيف نفسه. فتحت الباب، فدخل معتمرًا قبعة تقليدية من الصوف، كان يبتسم ابتسامة ساحرة لا تقاوم. كانت عيناه لوزيتين وحزينتين وسعيدتين في الآن نفسه، كأنه القائد مسعود بعينه.

قبل أسبوعين من انتقاله إلى منزلنا، جاء رزا لتناول الشاي في المنزل. ماذا كنا نفعل في ذلك اليوم لتمضية وقت الفراغ المملّ؟ لم أعد أتذكّر حقًا. كنا ندور حول أنفسنا في حلقة مفرغة.

كنا متحمسين ومتشوقين وقلقين أيضًا، لكنه نوع من قلق الواثق الذي يسبق الرحلات العظيمة. كان طفلاي قد رصدا أفغانستان على خريطة العالم المثبتة على جدار غرفتهما. قال لي نوح: «لقد حذرتك يا أمي، إنها بعيدة جدًا!»، وكان ماريوس قد أدرج البلدان المجاورة، ولمسها برأس سبابته: باكستان وطاجيكستان وإيران وتركمانستان والصينالتي لا تشترك مع أفغانستان سوى في بضع عشرات من الكيلومترات. ولأننا لم نكن نعرف شيئًا عن رزا، طلبت أناوفابريس من طفلينا بألا يطرحا عليه أية أسئلة شخصية خلال هذا اللقاء الأول. ربما فقد بعض أفراد عائلته خلال الحرب، وأثناء هروبه الطويل إلى أوروبا.

بماذا شعر رزا خلال اللحظة التي قابلناه فيها؟ وجدنا أنفسنا نحن الخمسة في غرفة الضيوف لأول مرة؟ كان يبدو قلقًا ومرهقًا بشكل رهيب. كان وجهه الحاد الزوايا يلمع من العرق. لو لم أكن أعرف أنه في الحادية والعشرين لقلت إنه في الأربعين. لقد اشتريت كعكة ليمون من المخبز، وبدأنا ننتظر ضيفنا المستقبلي، جالسين بهدوء على أريكة غرفة الضيوف، أمام الكعكة التي ما تزال داخل علبتها. كنت قد جهّزت كرسيين: الأول لرزا والثاني للمرافقة الشابة القادمة من جمعية «سامو»[1] الاجتماعية، لمساعدة المشردين.

---

(1) سامو الاجتماعية العالمية بالفرنسية: مصلحة المساعدة الطبية العاجلة) هي منظمة غير حكومية، مقرها الرئيس في باريس، أُنشئت في 3 يوليو 1998 تحت القانون الفرنسي للجمعيات 1901 بمبادرة من الدكتور كزافييه إيمانويلي. هدفها الإغاثة الاجتماعية في كل أنحاء العالم. بعدما فقدت أغلب مدن العالم الكبرى حسها الإنساني تجاه المشردين، جاءت هذه المنظمة للعمل على مساعدة وإغاثة هذه الفئة. كل مصلحة لسامو الاجتماعية لها مهمة خاصة فيها تسير من طرف جمعية محلية ومتطوعين، كما أن العاملين فيها لا يحملون شعارها في لباسهم.

لقد نسيت كل شيء تقريبًا عن اللقاء الأول. عبارة واحدة تتبادر إلى ذهني: من يعش في حالة تأهب؟

رجل في حالة تأهب، ينظر إليك بمزيد من الثبات، وبقدر كبير من العمق، حتى تخاله لا ينظر إليك حقًا، إنه يراقب ما يمكن أن يحدث على اليمين، وعلى اليسار، ومن كل الجوانب. يبدو رزا كمن يراقب كل حركاته. أمسكت يديه معًا، وتحدثنا بالفرنسية ببطء شديد. يضيّق عينيه ويركّز على الكلمات التي تخرج من أفواهنا، كما لو كانت كل كلمة، وحدها، شيئًا غامضًا، لا بد من تقليبه بسرعة خاطفة وتخمين معناها.

أخذ رزا نفسًا عميقًا، وقال إنه قادم من أفغانستان، وأنه عبَر «الكثير والكثير من البلدان» قبل وصوله إلى هنا. كم دولة؟ سأل ماريوس.. فأخبره رزا أنه ذهب أولاً إلى إيران، ثم إلى تركيا واليونان وألبانيا، ثم عبَر أوروبا كلها حتى وصل إلى النرويج. «يا لحظك! أنت محظوظ جدًا!» قال ماريوس متعجبًا. شعرت بقرصة باردة فوق رقبتي. يا له من إحراج، أن نتحدث عن كلمة «الحظ»، لكي نستحضر هروبًا سريًا تحت ظل الخوف الدائم، لكنني لمحت في الوقت نفسه وميضًا من الكبرياء في عيني رزا.. لقد أدرك أن رحلته بالنسبة لطفل بلغ من العمر تسع سنوات لمغامرة رائعة نظر إلى ماريوس وقال بابتسامة ودودة تدفقت معها دماء الفتوة إلى وجهه: «نعم، إنه الحظ!»

إقليم الدببة

1 فبراير

قررنا أن يشغل ماريوس ونوح غرفة النوم السفلية ذات السرير بطابقين، بينما ينتقل رزا إلى الغرفة المجاورة التي تضم لعب الأطفال وصناديق كتبهم وأثاث إيكيا المحشو بالأزياء التنكرية وإضبارات البوكيمون وعشرات من الدمى ذات الفرو التي يرغب ماريوس ونوح في الاحتفاظ بها بشكل دائم، حتى وإن كانا لا يرتبانها في خط مستقيم إلا مرة واحدة فقط كل عام. وليتأكّدَا من أنني لم أرم إحداها خلسة في المهملات؛ ساعداني في تفريغ الغرفة. قضينا في ذلك ساعات وساعات وساعات أُخَر.. بدا الأمر وكأنه لن ينتهي أبدًا. مهما فعلت، ستبقى هناك بندقية بلايموبيل عالقة بين لوحين من الأرضية الخشبية، ودمية «دودو» المحشوة الممضوغة داخل الدرج.. أتساءل عما إذا كان لدى ماريوس ونوح شعور بأنهما تعرضا لخدعة من نوع ما. بعد كل شيء، فقد تعرّضا للطرد من غرفتهما، حيث يقضيان معظم أوقاتهما، ومن المكان الذي يبنيان فيه كوخًا من الورق المقوى بستائر زهرية حقيقية ومدخنة يصنعانها بواسطة علب الأحذية، ومن داخل كوخهما يطلقان قهقهاتهما المجنونة.

كانت الغرفة التي يزحفان فيها على أربع مغطاة بمعاطف فراء شنيعة كانت أمي ترتديها في الثمانينيات. يرتدي نوح معطفًا من فرو الفيزون وهو يجعجع: «أنا جريزلييي! أنا قادم لأبتلعك!»أما ماريوس، فكان يرتدي فرو أرنب أبيض وهو يجيب صائحًا: «وأنا الدب القطبي! سألتهمك أوّوووّلاً!»

تمكّنا من الاحتفاظ بكل شيء في الغرفة الخلفية، وما دام لم يعد هناك متسع سنتيمتر مربع لنضع عليه أقدامنا؛ فإنني أصدرت قراري بأن يلعب طفلاي هذا العام في الصالون، وبذلك سيستعيدان معسكرهما. وللتأكد من أن الاتفاق المبرم بيننا جديّ فعلاً، نشر ماريوس ونوح قماشًا مشمعًا عند قدم الأريكة، ووضعا الورق المقوى الكبير الذي التقطناه هذا الصباح من الشارع، وأفرغا فوق لوح الألوان أنبوبًا كاملاً من الطلاء الأزرق، وشرعا في إنجاز لوحة جدارية ضخمة. أمام هذا الاندفاع الإبداعي، لا توجد فرصة واحدة كي تخرج الأريكة والأرضية الخشبية سالمة من اللطخات.

«سنرسم لوحة تشبه رسومات ماتيس!» يعلن نوح.

«لكنها ستكون أقل منها مستوى»، يحذرني ماريوس.

السرير

8 فبراير

كل شيء جاهز من أجل وصول رزا، لا ينقص سوى السرير. بحثت عن واحد مستعمل على موقع (الركن الجيّد). وبعد ساعات قليلة، قرعت جرس الباب امرأة وجدتها ذات نظرات حزينة، استقبلتني بهذه الكلمات: «آسفة على الفوضى! أنا أعيش مع ابني. كانت الشقة شبه فارغة، هناك صناديق لترحيل أثاث المنزل موضوعة فوق أرضية من شمع اللينيوم[2] المقشر في بعض الأماكن.. الأيدي على الوركين، أنا والمرأة جنبًا إلى جنب ننظر إلى السرير، لنبدأ المناقشة حول أفضل طريقة لتفكيكه. بينما يحاول فابريس، ورأسه تحت المرتبة، الإجابة عن السؤال بطريقة ملموسة أكثر منا. أنظر إلى المرأة خلسة، وهي تعض شفتها السفلى. يبدو وكأنها تمنع نفسها من البكاء. سألتها بصوت خافت: «هل أنت بخير؟ أجابت: «ليس كثيرًا! كانت عيناها تومضان وتشرقان بالدموع. ابتسمنا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض، ثم همست: «هل تعلمين أن ابني سيترك البيت اليوم.. هذا سريره».

---

(2) المشمع: تغطية للأرضيات مصنوعة من مواد قابلة للتجديد، مثل: زيت بذر الكتان، صنوبر الروزين، غبار الفلين، دقيق الخشب، والحشو المعدنية، مثل: كربونات الكالسيوم، وغالبًا ما تضاف إليه الأصباغ الملونة.

أتذكر المهدَ المحمول الأحمر والليّن الذي نام عليه ماريوس ونوح خلال الأسابيع الأولى من حياتهما، ثم سرير ماريوس ذا القضبان القفصية، المصنوع من الصنوبر الخام. وفي وقت لاحق، أخذ نوح مكان ماريوس خلف القضبان الخشبية نفسها، وتحت لعبة الدمى المتحركة بالخيوط التي أرفع بكرتها كل ليلة، والتي كانت تصدر أغنية أطفال قديمة حزينة وجميلة جدًا. بعد ذلك انتقل ماريوس إلى سرير آخر يسمى السرير «التطوري»، والذي يمكن تمديده بالتساوي مع نمو الطفل الذي يبدو في النهاية أنه لا يريد التوقف عن النمو.

- اعذريني إن كنت متطفلة، لمن السرير؟ تسألني المرأة.
- لشاب أفغاني، سيقيم في بيتنا سنة.
- طالب؟
- لا، إنه لاجئ شاب، وافقوا على طلب لجوئه.
- حسنًا، هذا جيد! أنا سعيدة بأن يصبح السرير ملكه.

عندما أعطيت صديقي إيلي سرير الأطفال والمهد الأحمر الخاص باللحظات الأولى من حياتهم، راودني انطباع بأني أتخلص من أشياء مقدّسة، نوع من الطواطم(3) التي ما تزال ذكرياتنا تتمسك بها، لكنني أتذكر أيضًا فرحي عندما رأيت ابنة إيليا نائمة في المهد الأحمر. وبعد بضع سنوات، شقيقها الصغير، ينام أيضًا في العش المحبوب نفسه، حيث ستواصل الحياة منبعها، طفلاً رضيعًا بعد رضيع.

(3) جمع طوطم، وهي الأشياء الرمزية ذات البعد الروحي والديني والعاطفي والثقافي.

البحث عن النساء المنكشفات

16 فبراير

سيصل رزا خلال ساعات قليلة، لكنني وجدت نساء في أنحاء الشقة جميعها.. تنام واحدة على جنبها فوق رف (صورة بولارويد)، وأخرى مستلقية حالمة فوق السرير (عبارة عن نقش)، والكثير من النساء مرسومات بالحبر الصيني، الباستيل، الفحم، يجلسن القرفصاء فوق الأثاث، وهناك منحوتات وبطاقات بريدية مستحمة من رسومات ديغا[4]، وباحثة عن المتعة لكيس فان دونجن[5]، وأصل العالم لكوربيه[6]، وفي ممر المطبخ، نساء مغطاة بالحشرات الخضراء قزحية الألوان. منذ طفولتي، وقصة (سفر التكوين) تحوم في ذهني، لكن سفر التكوين هنا مجسد بالمقلوب: آدم يخرج من ضلع حواء، يتطابق معها في شكلها، ولكن من دون التفاصيل الجسدية الجيّاشة، من دون ظلال. آدم يشبه حواء الملساء، يتمسك بها مثل كرزة تتدلى من شجرة الكرز. يتمتع آدم

---

(4) ولد الرسام والنحات والمصور الطبيعي والانطباعي الفرنسي هيلير جيرمان إدغار دي جاس، المعروف باسم إدغارديغا 19 يوليو 1834 في باريس ومات 27 سبتمبر 1917 في المدينة نفسها.

(5) كان كورنيليس ثيودوروس ماريا «كيس» فان دونجن (26 يناير 1877 - 28 مايو 1968) رسامًا هولنديًا وفرنسيًا من عمالقة المدرسة الوحشية.

(6) غوستاف كوربيه فنان تشكيلي فرنسي 1819 - 1877.

بمعالم فحولة ظريفة، لكنها مستسلمة للنوم، يستيقظ أحيانًا وهو لا يصدق عينيه، فينخرط في البكاء من شدة جمال حواء.

لا أعرف شيئًا تقريبًا عن رزا. ما أعرفه فقط أنه في الواحد والعشرين من العمر. وهو مسلم بالتأكيد، مثل 99 ٪ من السكان الأفغان. وربما جلهم من السنّة، مثل أربعة من كل خمسة أفغان. حتى وإن كانت تنقصني المعلومات، يمكنني أن أتصور أن رزا سوف يشعر بعدم الارتياح، وربما سيشعر بالألم أمام هذا الباليه من النساء المكشوفات اللائي تسلقن جدران الشقة. لذا، وبغض النظر عن حبي لأجساد النساء وجنسهن الأوركيدي الملكي؛ سارعت إلى إزالة كل هذه الصور واللوحات والمطبوعات والألوان المائية والبطاقات البريدية. أصبح الصالون فارغًا تمامًا، وبعد هذا الطرد لأولئك النساء، تركت فقط فتاتين أو ثلاث وحيدات، لأنهن لا يكشفن عن أي شيء ظاهر يمكن أن يرى، هناك الشكل الظاهري فقط والأكثر إنسانية.

هل يعد جسيمًا وظالمًا أن أطرد هؤلاء النساء؟ هل هذا فأل سيئ على حياتنا المشتركة مع رزا؟ لا أصدق ذلك.. إذا جاء رزا للعيش في المنزل، فيجب أن يكون المنزل أيضًا مستعدًا للتعايش مع رزا، وعلى استعداد لتغيير طفيف في الصوت والشكل والجلد.

الاستحمام المقدس

17 فبراير

ها قد وصل رزا! كنت وحدي في استقباله. صعد فابريس إلى الجبل وذهب الأطفال إلى منزل أجدادهم في الجنوب الغربي.

اقترحت على رزا أن أعرّفه على الحي: ساحة كونتريسكارب، وشارع موفيتارد، والمخابز، ومدرسة نوح، ومدرسة ماريوس، والسوبر ماركت كارفور، وأقرب محطات المترو، ونهر السين الذي يجري أسفل الشارع.

كان رزا يمشي بجانبي، ليس في عجلة من أمره، قلقًا، وعيناه مثبتتان على الأفق، ووجهه متجهم. أثناء السير على طول الحديقة النباتية، في شارع ليني، أشرت إلى المئذنة: «هذا هو المسجد الأقرب إلى المنزل. كما ترى، بالكاد ستستغرق خمس دقائق سيرًا على الأقدام».

سألني رزا: «هذا المسجد، جيد؟ الحرية؟»

لست متأكدةً من أنني فهمت السؤال. فأجبته: نعم، إنه مسجد جيد. مسجد يتمتع بسمعة منفتحة. نظر رزا إليّ بعناية، ثم قلت له أيضًا: إنه ليس مسجدًا سلفيًا. في هذه اللحظة وعيت أني وفي الوقت نفسه، أرتكب خطأ فادحًا؛ فقررت أن أسأله عما إذا كان

يعتنق ديانة، وما إذا كان يمارس تعاليمها أو لا. حدق في وجهي، بدا متردداً في الإجابة. إنه يبحث عن شيء ما من خلال عينيّ.

- حمام في النرويج.
- معذرة؟ هل استحممت في النرويج؟
- مسيحي.
- حمام مسيحي؟
- الكتاب المقدس.
- حمام مسيحي! عُمّدت في النرويج، أليس كذلك؟
- نعم، التعميد! أنا مسيحي.. أمي الطاجيكية مسيحية، وأبي الأفغاني شيعي.

أنا ورزا وجهاً لوجه، بين الدفيئات الكبيرة في حديقة النباتات. ونحن نعبر طريق المناور، أشرقت الشمس عند أقدامنا كألسنة من لهب ضوئي ما بين اللونين الوردي والأزرق.. أتساءل عما إذا كان هناك أفغاني آخر في العالم أمه بروتستانتية. ما هو مؤكد أنه الأفغاني الوحيد من أب مسلم وأمّ مسيحية، وعمّدوه في النرويج، ووجد نفسه في ضيافة امرأة فرنسية تذهب إلى الكنيسة البروتستانتية كل يوم أحد.

قلت له: «أنا أيضاً! هل تدرك ذلك؟ هذا جنون! نحن بروتستانتيون معاً!»

ابتسم رزا وهو ينظر إليّ بثقة، كما لو أننا اكتشفنا للتو أن لدينا جدة مشتركة، قال لي: «إنه الحظ!»

عندما عدت إلى المنزل، بحثت عن معلومات حول تقسيم الديانة في طاجيكستان. وعند الحديث عن الحظ الرفيع، علمت أن نسبة المسيحية بين السكان الطاجيكاستيين لا تتعدى واحدًا في المئة.

18 فبراير

يأخذ رزا دوشًا خلف الجدار الذي أسند عليه رأسي وأنا أقرأ صخب الزمن لأوسيب ماندلشتام[7]، الشاعر الروسي الكبير الذي مات وهو في طريق عودته من الغولاغ. أسمع الماء يجري بينما رزا يتناول قارورة الشامبو من السلة البلاستيكية المعلّقة فوق المغسل.

كنت أنا والحائط الضيق وضيفي والماء الذي يجري وهو يدفّئ ويطهر وربما يجرف معه في طريقه أفكار رزا المؤلمة.. كنا قريبين جدًا من بعضنا. يا للغرابة! غريب يستحم في البيت.

كم من دليل؟
كم من برهان؟
كم من الوقت؟
قبل أن تمنح ثقتك للغريب.
نظرة واحدة، وكل شيء يصبح أكيدًا ومؤكدًا.
تكفي نظرة واحدة.

---

(7) أوسيب ماندلشتام كاتب وشاعر روسي كبير، ولد عام 1891 وتوفي عام 1938، وقد اعتقلته حكومة ستالين خلال قمع ثلاثينيات القرن الماضي، وأرسل إلى منفاه الداخلي بالغولاغ برفقة زوجته ناديزدا.

التاسعة ليلاً

عندما مددت لرزا بطانية قطنية من أجل سريره، سألته: أين كان ينام في العامين الأخيرين. لفظ أسماء مراكز الإيواء كلها. وأخبرني عن قارب، ثم عن غارونور (منطقة صناعية شمال باريس)، وعن الجسر الذي عاش تحته برفقة مئات من المنفيين الآخرين، في محطة مترو بورت دو لا شابيل. أخبرني أن الكثير من الناس ساعدوه تحت الجسر. حاول أن يشرح لي ما فعله هؤلاء الناس من أجله، لكن الكلمات لا تساعده على التعبير، أراه يجهد نفسه ويتلعثم لسانه، وهو يكرر كثيرًا وكثيرًا وكثيرًا بتناغم، صيغة سحرية، ليعبر عن الامتنان الذي لم يستطع العثور على كلماته.

الجبل تحت الميترو

19 فبراير

اشترى رزا دجاجة مشوية من أجل أصدقائه الذين ما زالوا تحت جسر الميترو، وقال لي: «أراك لاحقًا!»، ثم غادر الشقة مبتسمًا والدجاجة تحت ذراعه.

* * *

عاد ماريوس ونوح من عطلتهما مصحوبين بجدهما فرانسيس وجدتهما فرانسواز، جديهما من جهة الأب. تناقشنا نحن السبعة، جالسين على شكل دائرة في الصالون. طرح فرانسيس والد زوجي، بنبرته الصوتية النموذجية لمنطقة الجنوبي الغربي، المتموجة، والتي تخرج من الأنف، والتي تتسم بالسرعة أيضًا، أسئلة لا حصر لها على رزا، الذي كان يجيب دائمًا خارج الموضوع، وبكثير من الهمة والحماس.

عندما يسأله فرانسيس عما إذا كان قد تجوّل في الحي، يجيب رزا بأنه كان ينظف ثماني وعشرين ساعة في الأسبوع في أحد المنازل لإعادة الإدماج، ولديه عقد عمل مدة عام. عندما سألته حماتي فرانسواز عما إذا كان قد بدأ يشعر بالارتياح في

الشقة، يرد رزا بأن الشركة متخصصة في التنظيف العضوي الذي لا يستعمل إلا المواد المناسبة للبيئة.

وعندما أراد فرانسيس معرفة ما إذا كان قد زار رزا حديقة النباتات، وما إذا كان قد شاهد حيوانات الحديقة، يجيب رزا بأنه كان يعمل في النرويج كميكانيكي على قوارب بخارية.

في نهاية المساء، وجدت نفسي وحيدة في المطبخ مع رزا.

- جد وجدة لطيفان جدًّا!

- نعم، هل رأيت كم هما رائعان جدًّا!

- لكنهما لا يتحدثان الفرنسية.

- بلى، يتحدثان الفرنسية!

-لا، إنها لهجة.

- لا، رزا، إنها ليست لهجة! إنها نبرة صوتية للتعبير. كل منطقة فرنسية لديها نبرة صوتية خاصة. على سبيل المثال: في باريس، لدينا نبرة حادّة.

صنعت بيديّ قبعة مدببة لا تشبه شيئًا ولا تفسر أي شيء، فضحكنا معًا بصوت مرتفعٍ، مدركين تمامًا عدم القدرة على فهم بعضنا البعض.

20 فبراير

في هذا الصباح، رنَّ منبه رزا عند الساعة الخامسة والنصف، سيذهب إلى العمل مبكرًا. تقع غرفته بيننا وبين غرفة الأطفال، كما لو كنا نلفه نحن الأربعة بنومنا ليلاً. سريرنا ملتصق بالحائط، بينما سرير رزا يوجد خلفه. بحيث لا تبعد أجسادنا عن بعضها إلا ببضع عشرات من السنتيمترات. أجسادنا البشرية، هياكلنا العظمية المتشابهة، المئتا وستة عظم المتطابقة أيضًا، نتنفس، دمنا يسري في الشرايين، شعرنا ينمو في الوقت نفسه على جانبي الحائط. لكن جسد رزا، المستلقي على مقربة مني، يعرف ما لا يعرفه جسدي، إنه يعرف ماذا يعني الهرب.. يعرف كيف يصبح جسدك ملجأك الوحيد، والعالم بكامله يصير جسدك الخاص.

كان الجدار الذي يفصلنا حاجزًا رهيفًا.. أضافه المستأجرون السابقون، والذي يسمع من خلاله كل شيء، يمكن سماع التثاؤب، وحتى صفحات كتاب وهي تقلب.. سمعت هذا الصباح المجهود الذي يبذله رزا كي يلتزم بالهدوء، كيف يغلق أبواب الخزانة برفق، ويسحب الدرج ببطء أسفل السرير، ويمشي على أطراف أصابعه، لكي لا يقرقع ألواح الأرضية الخشبية. كنت أريد أن أطرق بابه وأقول له: أرجوك، قم ببعض الضوضاء، افتعل الضوضاء التي يقوم بها أي شخص يعيش في مكان ما، خذ حصتك كاملة من الضوضاء.

فتح رزا باب غرفته عند الساعة السادسة والنصف. وفي الممر، كان يمشي ببطء شديد، كما يحدث عندما نضع الرضيع لينام في سريره ذي القضبان الخشبية، ونخرج من الغرفة نمشي إلى الوراء ونحن نراقبه بعيوننا، متحققين بطرف أقدامنا أن الأرضية خلفنا لن تخوننا، وأنها لن تصدر صريرها عندما نضع ثقلنا عليها. يصب رزا الماء في مغسلة الحمام، فقط صبيبًا خفيفًا بضع ثوان فحسب. أرى من تحت باب غرفتنا أنه لم يشعل ضوء الممر، لا ضوء يوجد في الظلام، ثم سمعنا باب الشقة، لم أكن أعتقد مطلقًا أنه يمكن أن نسمع إغلاق الباب بهذا الهدوء.

عندما يعود رزا من العمل، نجلس إلى الطاولة لنحتسي كوبًا من الشاي.. أخبرته أنني سمعت من الراديو أن بلدية مدينة باريس قد وضعت الصخور تحت جسر المترو في محطة بورت دو لا شابيل. الصخور قريبة جدًا من بعضها البعض، بحيث لا يستطيع الناس الاستلقاء فوقها. رزا لم يفهم.

– «صخور؟» يسألني.

– الصخور هي حجارة كبيرة، هل تعرف هذه الكلمات: الحجارة، الحصى؟

– لا.

– الصخور، إنها ثقيلة، ثقيلة جدًا، كبيرة، هكذا! إنها قطع من الجبل، هل تعرف الجبل؟

– نعم، أنا أعرف الجبل. في بلدي، هناك العديد من الجبال، لكن لماذا جبل في مترو بورت شابيل؟

- إنها مجرد قطع من الحجارة الجبلية، العديد من القطع الجبلية وضعت تحت جسر المترو لمنع الناس من الاستقرار والنوم، حيث كنت تنام أنت، هل فهمت؟

- لا، أنا لم أفهم.

لا يفهم رزا، لأنه من المستحيل أن يفهم الأمر برمته.

1789

21 فبراير

منذ أن قدم رزا، تعود أن يترك باب غرفة نومه مفتوحًا طوال الوقت، الغرفة تطل على الصالون، ربما لا يجرؤ على إغلاق الباب، أو أنه يرى أنه من سوء الأدب إغلاق الباب، عندما تقيم مع أشخاص آخرين. ماذا يعني، بالنسبة إليه، أن يبقي بابه مفتوحًا أو مغلقًا؟ وأبوابنا، ماذا يقول عنها؟ يخرج رزا من غرفته ومعه كيس مليء بالوثائق. يمد لي تصريح إقامته، ساري المفعول مدة عشر سنوات، ثم وثيقة سفره الخاصة باللاجئين، وهي بنفس اللون البني لجواز السفر الفرنسي. يسلمني بطاقة التأمين الصحي، ويعطيني بطاقة زرقاء للبريد بنك.

يعطيني دبلوم اللغة الفرنسية كلغة أجنبية المستوى الأول. أصبح حلقي جافًا، كنت أحمل بين أصابعي كل شيء ممكن وكل شيء مستحيل، كل ما يمكن تصوره ويمثل الأمل عند رزا. يجلس إلى جواري ويسلمني الوثيقة الأخيرة، فارسي يقول لي: على ورقة A4، يبدو أن كل شيء قد طبع باللغة الفارسية، وهي لغة تشبه لغة رزا الأصلية، والتي تسمى الداري، وهي خليط متنوع من

الفارسية المحكية في أفغانستان. أخبرني أن هذه الورقة أعطاها له متطوعون يقدمون وجبة الإفطار للمهاجرين. يملك رزا طريقة خاصة وعذبة جدًا عند نطقه كلمة «مهاجر»، عندما ينطق كلمة «مهاجر»، نسمع «معجزة». لا تعود كلمة المهاجر تلك القمامة المجهولة المصدر، والتي تستخدم في كل مجال، هذه الكلمة الغائمة التي ترفض أن تقول: الحرب والبقاء والمنفى. من فم رزا، كلمة مهاجر، تعنيه هو والذين يشاركون في أجسادهم سر الرحلة وقوة النجاة. المهاجر هو أعلى فرع شجرة حياته. يبدو المستند وكأنه سلسلة من البنود القانونية ذات الأرقام، والتي تذكرني بشيء مألوف. يضع رزا إصبعه على الكلمات الثلاث التي تبرز في الجزء العلوي من الصفحة ويقرؤها باللغة الفارسية، ثم يترجمها إلى الفرنسية: الحرية، المساواة، الإخاء.

- «إنه الإعلان»، قال رزا.

- إعلان حقوق الإنسان والمواطن، قلت، بصوت مليء بالدموع التي انهمرت دون سابق إنذار.

* * *

عندما عاد الأطفال إلى المنزل من المدرسة، لعبنا الورق في الصالون نحن الأربعة، على طاولة مصنوعة من الفورميكا الوردي اللون تعود إلى فترة الخمسينيات. وضح ماريوس قواعد لعبة الهويست لرزا، موضحًا كل كلمة، هو الذي يتحدث عادة بسرعة تختفي معها المقاطع اللفظية. لعبنا وقتًا طويلاً. شكرت لعبة الورق ولغتها الفطرية التي تملك الفن اللطيف والمتواضع لجمع الأشخاص الذين يدعون أنهم مهتمون باللعبة، بينما هم ليسوا هنا إلا من أجل الاستمتاع بأن يكونوا مع بعضهم البعض.

أسطورة تابير ملاوي

21 فبراير – الحادية عشرة والنصف ليلاً.

نتناول أنا وفابريس ورزا العشاء في الصالون.. سألت رزا عن العام الذي غادر فيه أفغانستان، كما لو كنت أريد فقط معرفة تاريخ محدد، كما لو أن سؤالي لم يكن سؤالًا آخر، وخمسين سؤالاً آخر، وهو ما لا يمكنني طرحه.. أجابني رزا. كان يبحث عن كل كلمة، ينتزعها منه انتزاعًا، وهو يقطب وجهه من شدة الجهد الذي يبذله، لكن تدفق جمله يبلبلنا، الكلمات التي يستخدمها معظمها ليست فرنسية، ورغم ذلك كنا نفهمه. كان رزا في الحادية عشرة من عمره عندما غادر أفغانستان، عاش في منطقة جبلية، وكان والده يعمل في مجال التصدير والاستيراد، وكثيرًا ما يسافر إلى طاجيكستان وباكستان وإيران، وقُتل بينما كان يقود شاحنته. يحاكي رزا المشهد، يضع السلاح فوق كتفه، ثم يحاكي إطلاق النار. أقول وفابريس، في الوقت نفسه، وبغباء قليلاً: «قاذفة صواريخ». كانت الشرطة المحلية متورطة في عملية الاغتيال. كان على رزا وأمه وإخوته الفرار والاختباء، لكنهم عثروا عليهم في قرية معزولة.. تلقت الأم ضربة على رأسها بعقب كلاشينكوف،

لكنها نجت وهربت مصممة على مغادرة البلاد برفقة أطفالها.

لم أنبس بكلمة واحدة، كذلك فابريس بقي صامتًا، ثم نهض رزا وأخذ صحنه ليغسله.

في وقت لاحق، سألني عن مكان ولادتنا. أجبته بأن ماريوس ونوح ولدا في باريس. أنا في ليون وفابريس قريبًا من بوردو في الجنوب الغربي لفرنسا.

- في بيت الأم والأب؟

- لا، ولدنا جميعًا في المستشفى.

- هل حدثت مشكلة؟

- لا، لا توجد مشكلة، لكن في فرنسا حتى وإن لم يكن هناك مشكلة، فإننا نولد في المستشفى.

رفع رزا حاجبيه مرتابًا، وأخبرني أنه ولد في قرية الوادي محاطًا بالجبال في منزل والديه، وسجل والده يوم ولادته اسمه في القرآن.

22 فبراير

يجلس رزا إلى جانبي.. كنت أجلس أمام حاسوبي، الموضوع دائمًا فوق طاولة الفورميكا الزهرية في الصالون.

- ما عملك؟

- الكتابة، أكتب كتبًا.

- كتب.. مثل هذه؟ قال لي وهو يشير إلى المكتبة الموجودة أمامنا.

- نعم، مثل هذه الكتب.

- ماذا تكتبين؟

- اليوم أكتب البويزي[8] هل تعرف كلمة بويزي؟

- لا.

حاولت أن أشرح له، لكنني فعلت ذلك بشكل سيئ، بدا الأمر وكأنني أشرح له مرضًا عقليًا. نظر إليّ نظرة غريبة، كما لو أني أخبرته للتو أنني كنت ساحرة أو كاهنة، تبادرت إلى ذهني فكرة أن أغش وأبحث في غوغل للحصول على المساعدة. كتبت «بويزي» في نافذة البحث وأطلعتُ رزا على الكلمة على الشاشة التي توافقها باللغة الفارسية. أشرق وجهه وقال: «شعر»، كلمة حريريّة وسماوية تقول الشعر بأمانة أكثر بكثير من البويزي، لقد منحني رزا الغفران:

«أنت تكتبين قصائد، هذا جيد جدًا»

* * *

ذهبنا إلى مكتب «أصدقاء المتحف» لكي نشتري بطاقة لرزا، هذه البطاقة ستمكنه من الدخول مجانًا طيلة عام إلى فضاءات حديقة النباتات كلها، بما فيها حديقة الحيوانات، ومعرض

---

(8) Poesie المصطلح الذي يطلق على الشّعر بالفرنسية.

المعـادن، والدفيئـات الكبيـرة، ومتحـف المتحجـرات الـذي يحبـه كثيـرًا ماريـوس ونـوح، نظـرًا لوجـود هيـاكل الديناصـورات العظميـة، وعند لحظـة تأدية ثمـن البطاقـة، أخـذ رزا يبحـث عـن محفظتـه فـي جيـب سـترته، فقاطعـت حركتـه قائلـة:

– إنها هدية يا رزا، كيف نقول كلمة «هدية» بلغة الداري؟

– هـدية، أيضًـا، قال رزا من دون تردد..

شـعرت أن كلمـة هديـة هـي عالـم مشـترك، نحـن نعـرف بسـاطتها الهائلـة، نحـن نعلـم أن الهديـة هـي وسـيلة لكـي نقـول للآخـر: «أنـا أتوجـه إليـك وإليـك وحـدك، لتقبـل هـذه التميمـة عربونًـا عن صداقتي».

فـي حديقـة الحيوانـات، وقـف رزا منتصبًـا ومندهشًـا أمـام طيـور النحـام الزهريـة التـي تتـوازن علـى سـاق واحـدة.. يعبّـر رزا بكلمـة صريحـة رائعـة عـن إعجابـه أمـام الحيوانـات: «أووووووه!»، ويشـير إلـى عـرف الإغوانـا الشـوكي وهـو يحـدق فـي وجهـي بإصـرار، كمـا لـو أنـه يريـد منـي أن أكشـف لـه سـر هـذا الحيـوان الغريـب الأطـوار. يخبر نـوح رزا أن هنـاك تابيـر مـلاوي[9] فـي الحظيـرة الكبيـرة، يخـرج إلـى الهـواء الطلـق.

تابيـر بلونيـن، أبيـض ناصـع مـن جهـة وأسـود خالـص مـن جهـة أخـرى. إجمـالاً، يبـدو أننـا لـم يسـبق لنـا رؤيتـه رؤيـة العيـن أبـدًا.. نحـن نعرفـه فقـط مـن خـلال الصـور، لأن هـذا التابيـر لا يسـتطيع

(9) التابير الملاوي أو التابير الهندي: هو نوع من الحيوانات الثدية يتبع جنس التابير من فصيلة التابيرات. يستوطن مناطق جزر الهند الشرقية.

تحمل البرد أو الحرارة، ويفضل أن يبقى آمنًا في كوخه. يقول ماريوس: «ربما لا يوجد تابير مطلقًا». وعندما رأيناه فجأة بشكله الضخم، مع حدود رائعة موضوعة ودقيقة، كأنها مخططة بواسطة المسطرة. تفصل النصف الأسود الغرابي عن النصف الأبيض الثلجي. صاح الأطفال بفرح: «إنه هنا! يا رزا! إنه هنا!».

فقال رزا منبهرًا كلمة «أووووووه!» طويلة ومديدة.

تحت حافر الفرس

22 - 23 فبراير

في الشارع، لا يندمج جسد رزا مع الخلفية التي تشكل المدينة؛ طريقة مشيه مختلفة عن المارة الآخرين، لأنه ينفصل عنا بسرعة وتوتر، يمشي برشاقة وقلق، يبدو وكأنه ينتظر إشارة واهتزازة صغيرة من الطبيعة لكي يهرب راكضًا وبعيدًا.

في المكتبة العامة في شارع بوفون، يداعب رزا الأشعة ويلمس أغلفة الكتب. أنظر إليه من بعيد، استحوذت عليّ فرحته المفاجئة بالمكتبة، هذا الشعور بالنشوة والأمل الكبير الذي يشعر به المرء وهو بين الكتب، في وسط حشد من أجسادها الحية. الكتب شعب لا يقهر، جريء، مضياف، ومحب، ذو بشرة سوداء وبيضاء.

يبحث رزا عن طريقة لتعلم اللغة الفرنسية، مع تمارين وحلولها، وأقراص مدمجة للاستماع إليها. اقترحت عليه أن يذهب لرؤية أمينة المكتبة التي ستعرف أفضل مني. سأل المرأة ذات الشعر الأحمر الطويل والمضفّر: أين توجد الكتب باللغتين الداري والفرنسية للمبتدئين. وهناك طريقة نرويجية فرنسية أيضًا، يمكن أن تفي بالغرض أيضًا. «النرويجية والداري؟»، كررت المرأة وعلامات الأسف بادية على محياها.

«داري أو فارسي»، يوضح رزا، لطمأنتها. اندهش كثيرًا عندما أخبرته المرأة أنه لا توجد كتب باللغة النرويجية أو الفارسية في هذه المكتبة. فاقترحت عليه الطريقة الإنجليزية الفرنسية، لكن رزا لا يتحدث كلمة واحدة باللغة الإنجليزية. العربية-الفرنسية؟ أيضًا لا، ولا كلمة من العربية. الإسبانية؟ لا. اللغة الألمانية؟ لا. الإيطالية؟ لا. شعرت أمينة المكتبة بالإحباط. التفتت نحوي بوجهها الذي يعود إلى القرون الوسطى ذي الجبهة الكبيرة والمحدبة، والعينين الزرقاوين الشاحبتين والمشرقتين مثل قطعتين جليديتين، وبلهجة حادة قالت: «في النهاية لا بد أن الداري توجد تحت حافر حصان!» انصرفنا نحمل أربعة كتيبات (اللغة الفرنسية كلغة أجنبية) للمستوى الثاني.. لن تتركنا أمينة المكتبة نعود إلى المنزل خاليي الوفاض.

* * *

أعددت أنا ورزا (غراتان)[10] من أجل العشاء. أتهجى أسماء الخضراوات. أقسم مقاطعها اللفظية: شم- رة. قرن- بيط. بص- ل. يكرر رزا كل كلمة. كان نطقه ممتازًا، سكينان يقطعان بإيقاع واحد: تشوك، تشوك، تشوك، وفجأة أدركت ضرورة طبخ شيء يؤكل كل ليلة. ليس طبقًا من السباغيتي معدًا على السريع، وليس بيتزا من المطعم. الاستضافة تعني طهو الطعام، وشراء الخضروات وتقطيعها وجعلها تطبخ مع زيت الزيتون مدة طويلة، الاستضافة ألا تكون على عجلة من أمرك، ولا تتسرع أبدًا في الطبخ، لكنني تأخرت كثيرًا في كتابة روايتي.. يجب قطعًا أن أكتب. نسمع صوت السكينين: تشوك.. تشوك.. تشوك.. وأسمع قلبي يخفق.

أشعر بحالة من الذعر، لن أجد الوقت الكافي أبدًا! كيف سأكتب رواية وأطهو الخضروات في الوقت نفسه! إما الكتابة أو الاستضافة، يجب أن أختار.

* * *

(10) صينية من الخضراوات أو البطاطس أو المعجنات يضاف إليها قطع اللحم أو الدجاج، وتغطى بالجبن وتطهى في الفرن.

خلال العشاء، أخبرنا رزا عن سنواته في النرويج، من سن الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة.. كانت المعلومات تتراكم دون أن أكون قادرة على تخيل حياته هناك:

اصطاد السمك بالقصبة

لعب في ناد لكرة الطائرة

أصلح محركات القوارب

أصبح قائد فريق كرة الطائرة.

قاد عربة فينويك للشحن في مصنع تغليف صناعي

استحم في البحر

فر من الشرطة

نسج علاقات مع أصدقاء كثيرين

قاموا بتعميده

كانت السماء واسعة

كان هناك أشخاص كثيرون

يتحدث الناس بإنجليزية مثالية

لكن الناس عنصريون

«هل قلت: «عنصريون»؟» سأل فابريس. «نعم، عنصريون»، أجاب رزا بصوت محايد، كما لو كانت ميزة شائعة. «لا يحبون المهاجرين»، وضح رزا ما دام قد لاحظ أننا لم نفهم قصده. ودائمًا بطريقته الفخورة والمهيبة لنطق كلمة «مهاجر». بحيث يجعلها كلمة جليلة.

- لماذا تركت النرويج؟

أخذت نظرته مسحة سوداء، أصبح وجهه غريبًا، يجيبني وكأنه يلعن. قال إنه لم يحصل على الأوراق، بل بدأت الشرطة تبحث عنه، فاضطر إلى المغادرة.

- وأصدقاؤك، هل قلت لهم وداعًا؟

لا، لم يكن لديه الوقت ليقول وداعًا؛ عرف أحدهم أن الشرطة ستأتي وتعتقله فحذره.. غادر رزا في منتصف الليل، هرب مرة أخرى. عندما يهرب أحد، لا توجد نهاية للهرب.. خط النهاية وهمي مثل خط الأفق.

دانيال

23 فبراير

قدمت رزا إلى جارتي كاثرين التي تحترف التمثيل، وتسكن في الطابق الثاني من البناية. يحب طفلاي زيارتها؛ لديها دائمًا أشياء طيبة مثل الشاي الشهير والمُحترم لفترة العصرونية، وعصير فواكه، والكعكة المغطاة بطبقة من الشوكولاتة، والبسكويت الألزاسي مع القرفة...

عندما سألت كاثرين رزا عن نوعية عمله، ردّ بسرور: «لدي عقد عمل» ثم حدد تفاصيل المهام التي يتعين عليه إنجازها -الكنس، المسح، التنظيف بالمكنسة الكهربائية والممسحة، إزالة الغبار، التطهير- لم يكن العمل مهمًا جدًا، لكن لا يهم، ما يغير كل شيء، ما يحمي ويجعلك مرئيًا هو أن تملك عقد عمل. طلب مني رزا أيضًا أن أقرأه بالكامل وأن أشرح له البنود كلها.

كان رزا يعمل منذ سنّ الخامسة عشرة، كان دائمًا يجد وظائف صغيرة، هذه هي المرة الأولى التي يصرح صاحب العمل بوضعه المهني، وكما يقول: إنه لا يعمل بطريقة غير شرعية.

طلب مني رزا إنجيلاً، وأخذ يتصفح العهد القديم، ثم نظر

إلي وقال: إن اسمه ليس رزا.. قالها بصوت منخفض وحذر، كمن يقول سرًا. أخبرني أنه بحث في النرويج، عن اسمه عدة أشهر دون أن يجده. بحث في كل مكان في الكتاب المقدس اللانهائي، وبعد أسابيع وأسابيع من القراءة الحماسية، اختار اسم دانيال، مثل النبي المنذور للموت، والذي ألقي مرتين في عرين الأسد، وخرج في المناسبتين حيًا. سلمني رزا شهادة المعمودية التي تبرز بأحرف كبيرة منفصلة اسمه فوق سماء زرقاء: د ا ن ي ا ل.

قال لي: من دون الرب لا يمكن أن نعرف كيف نعيش على الأرض.

هل توافقين؟ يسألني رزا.

قلت: في بلادنا يفكر الناس مثله أو يفكرون بشكل مختلف. الناس يفكرون ما يريدونه.

يقول لي رزا:

فرنسا، إنها الحرية.

الشاحنة اللعينة

24 فبراير

ها قد مر أسبوع منذ أن أصبح رزا -الذي يسمى الآن دانيال بناء على طلبه – يعيش معنا في المنزل. جلس ماريوس ونوح إلى طاولة الصالون ومعهم حزمة من الأوراق متعددة الألوان، كان رزا يعلمهم طريقة طيّ الورقة ليمنحها شكل زهرة الزنبق البديعة، كان طفلاي مندهشين وهما يشاهدان الزنابق وهي تتراكم فوق الطاولة، أنظر إليهم جميعًا وهم يعكفون بأيديهم الرشيقة، يعجنون بإبهامهم بتلاتها لتنعيمها وتجعيدها. يسأل نوح رزا: «هل هذا جيد؟» يأخذ رزا الزنبقة ويديرها بين أصابعه، ثم يعلن الحكم: «هذا جيد جدًا».. يبتسم نوح ببهجة.. يحرص ماريوس أن يذكره بأننا أيضًا، في العائلة، نعرف فن طيّ الورق: «نعرف كيف نصنع البطاريق والخيول وأسماك القرش، وأمي أيضًا تعرف كيف تصنع التيرانوصورا» ماريوس يقول الحقيقة. منذ خمس سنوات، واجهت فترة من الإدمان الشديد على طي الورق.. لم أستطع التوقف عنه، كنت مدمنة على الأوريغامي(11).

---

(11) الأوريغامي: فن شرقي، ربما ظهر أول مرة في الصين، لكنه تطور بشكل أساسي في اليابان، حيث أصبح فنًا بحد ذاته.

وهو فن خفي مع تطبيقات متعددة: دينية وعملية وشاعرية وزخرفية وعلمية، والتي تتطلب فقط قطعة من الورق وقليلاً من الصبر.

والميل للإبداع.

في الصباح، وبمجرد مغادرتي السرير، أشرع في الطيّ صانعة طيورًا مخوّضة، وأزهار البنسون، ووحيد القرن. وفي لحظات ذروة هذياني، أعطيت شكلاً للتيرانوصور الذي وجده الجميع -ودون رغبة منهم في جرح مشاعري- فاشلاً تمامًا. فكانت تلك النهاية الوحشية لمسيرتي كمدمنة فنّ الألف طيّة.

لطالما أحب ماريوس ونوح القص واللصق والخياطة والتعليق وسحب أميال من لصاق السكوتش وصنع المظلات من أكياس القمامة والمستنقعات من قنينات الحليب والحمص وتماسيح النيل من المكرونة وجيوش الحرب من سدادات الفلين وهم يلوحون بعيدان الأسنان المميتة، وقلادات من أسنان الحليب، وبراكين من عجين الملح تسيل منها حمم من مربى الفراولة، وتماثيل للآلهة المصرية من فتات الخبز ومدافع رشاشة على شكل لفائف من ورق الحمام والتنانير المحاربين من ورق التغليف، لقد ورثوا حبي للأشياء التي تلمس، وتُمسّد، وتُشكّل، وتُدعك. وبعد ذلك، لم يكن أمام المسكينين من خيار. كان عليهما أن يشغلا نفسيهما، وهما يعيشان مع والدَين تقليديين ومعتوهين لا يسمحان أبدًا بأن يدخل إلى المنزل، لا التلفزيون ولا الجهاز اللوحي، ولا وحدة التحكم الخاصة بألعاب الفيديو البريئة.

نشأ ماريوس ونوح من دون شاشات في عصر هيمنة الشاشات، لكن مرة في الأسبوع -ويصادف دائمًا ليلة الجمعة- نشاهد الأفلام.. نجلس نحن الأربعة على الأريكة الضيقة جدًا، نضع

كمبيوتر فابريس متوازنًا على مقعد، وبينما نحن نستمتع بطبق من المعكرونة بجبنة البارميزان، نشاهد فيلم «النزهة الكبرى» أو «مغامرات الحاخام يعقوب»، أو «الأربعمئة ضربة»، بعض الأفلام تعجبهما بشدة، مثل: «والاس وجروميت» و«عمي» و«السيد العجيب فوكس» و«اسمي لا أحد» و«إنديانا جونز» و«الحملة الصليبية الأخيرة» و«العصور الحديثة» و«حرب الأزرار» و«المغفل»، لا أعرف أحلى من هذه اللحظات.. نحن نطرد الشاشات الإلكترونية حتى لا نطرد السينما التي نعدّها الحياة نفسها.

الحادية عشرة ليلاً

جاءت صديقتي المغربية التي أمضيت برفقتها سنوات الجامعة لتناول العشاء في منزلنا، سافرت برفقتها حاملتين حقيبة الظهر إلى سفوح ماتشو بيتشو الإلهية، وإلى المياه المتلألئة لبحيرة تيتيكاكا، في صحراء أويوني، وصحراء أتاكاما، والصحراء الليبية، وسيناء، وإلى مياه البحر الأحمر الساخنة، وإلى النيل حيث معبد أبو سمبل العظيم.

تسأل بولين رزا عن البلد الذي ذهب إليه قبل وصوله إلى فرنسا.

- مررت عن طريق إيران.

إلى تركيا.

واليونان.

وألبانيا.

وعبر دول أخرى.

في أنحاء أوروبا كلها

وإلى النرويج، تحت شاحنة.

- تقصد داخل شاحنة

- لا، تحت الشاحنة.

يأخذ رزا قلمًا وورقة ويرسم الشاحنة والعجلات والعارضة التي تربط العجلات وصورة ظلية لرجل متمسك بالعارضة.

- هل اختبأت فوق المحور؟ اللعنة، هذا خطير جدًا!

- أشد خطورة، يكرر رزا.

- ومع ذلك ذهبت إلى غابة النرويج تحت الشاحنة! هناك أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر!

- المسافة أكثر بعدًا، يؤكد رزا.

- خمسة عشر ألفًا.

- اللعنة! مع من كنت؟ مع أشخاص من عائلتك؟

- لا.

- وحدك؟

- نعم، وحدي.

- هل خفت من السقوط على الطريق، عندما كنت تحت الشاحنة؟ سأل ماريوس.

- خفت كثيرًا! أجاب رزا.

سألته إن كان قد تأذى خلال هذه الرحلة وهو متمسك بمحور العجلات. وضع يده على رقبته، تحت ياقة قميصه، وقال إن ظهره قد احترق تحت الشاحنة. صاحت بولين: «اللعنة!»

سأل رزا: «اللعنة»؟ ما معنى «اللعنة»؟ تقولون كثيرًا كلمة «اللعنة».

شرحت له أن كلمة اللعنة تشبه الكلمة الإنجليزية fuck!

- fac؟ مثل الجامعة؟

- لا ليست fac هي fuck[12] ولكن لا داعي لتحفظ هذه الكلمة يا دانيال!

- اشرحي لي معنى كلمة «اللعنة».

- حسنًا، مثلاً عندما نكون منفعلين نقول: «اللعنة، لقد فاتني القطار؟» وعندما نشعر بالدهشة: اللعنة، هناك جرذ في الشرفة! أو عندما يصادفنا شيء رائع جدًا: «ياللعنة العطل!» أو عندما نريد أن نلح على شيء: «اللعنة، كم الطقس بارد!»

- اللعنة، ما تقولين؟ ماذا تعنين بهذا الكلام؟ سأل رزا مرة أخرى.

في الأصل الكلمة تعني «المومس» هل تعرف هذه الكلمة؟

أتناول حاسوبي وأرقن الكلمة في خانة ترجمة غوغل، تظهر الكلمة بالفارسي؛ شعر رزا برجفة خفيفة ووضع كفه على فمه، أصبحت عيناه مترعتين بفرحة صبي صغير أدرك من تلميحات البالغين أنهم يتحدثون عن الحياة الجنسية. في بعض الأحيان، ينبعث ضوء طفولي من وجهه، كان ناضجًا جدًا وقاسيًا جدًا. أين هي أمّ هذا الرجل الذي ما زال طفلاً؟ أين هي أمك، يا رزا؟

يحوم السؤال في خاطرنا، لكننا لا نجرؤ أبدًا على سؤاله.

---

(12) تشابه لفظي مع اختلاف في المعنى.

عطاء

كدت أذهب إلى الفراش عندما سلمني رزا في الممر حزمة من الأوراق النقدية.

- ما هذا؟

- مالي.

- هذا مال كثير!

- ألف يورو، هل يمكنك الاحتفاظ به لأجلي؟

- أنت تريدني أن أحتفظ لك بألف يورو!

- نعم، أنت حافظي على مالي.

- لكن هذه مدخراتك يا دانيال! لديك حساب بنكي... يجدر بك أن تضع أموالك في البنك.

- لا، في غرفتك.. يمكنك الاحتفاظ بها.

- ولكن لماذا؟ يوضح لي أنه حالما يمتلك المال، فإنه يخسره.. إذا لم آخذ ماله، فسيخسر كل شيء، مثل كل مرة، حتى آخر يورو.

لا أفهم، وهو المتيقظ والمنظم جدًا، كيف يمكنه أن يخسر ماله؟

- هل أنت خائف من أن البنك لن يعيد إليك أموالك إذا وضعتها في حسابك؟ أليس كذلك؟

- لا، أنت لا تفهمين.

- قل لي يا دانيال، قل لي كيف تخسر أموالك؟

عندئذ شرح لي رزا، لأنني حقًا لم أفهم شيئًا. بمجرد أن يحصل على راتبه، يشتري الخيام للمهاجرين الذين ينامون في الشارع، يشتري لهم الدجاج المشوي، يشتري لهم السندويشات، يشتري لهم البطانيات وأكياس النوم، يشتري لهم المخدرات، يشتري لهم الملابس والأحذية، يشتري لهم زجاجات من الماء وورق الحمام.

قلت له والدموع تملأ عيني: «لكن يا دانيال، هذا ليس ضياعًا للمال، هذا نسميه عطاء»

وافقت على الاحتفاظ بألف يورو في غرفتي داخل صندوق حديدي أخضر قديم مرقش بنقاط بيضاء.. أخبرني رزا أنه عندما يطلب مني المال، لا ينبغي أن أعطيه إياه، لأنه يود الاحتفاظ بهذه الأموال، ليجدها في وقت لاحق، فيتمكن من دفع إيجار أستوديو خاص به.

ماذا فعلت من أجل أخيك

25 فبراير

جاء والداي إلى باريس، سأل أبي رزا: «إذن، كل شيء يسير على ما يرام؟ ابنتي لا تضربك بشدة؟»

لم يفهم رزا مزحة أبي المريبة، الذي كان منهمكًا بالبحث عن شيء ما على شبكة الإنترنت. بالنسبة لأمي، فقد سألته عما يود القيام به بعد نهاية عقد العمل.. يرد رزا بأنه يرغب في أن يصبح طاهيًا ويفتح محلاً تركيًا في باريس. يقول لنا: «في أفغانستان، أُعطي البنك ألفًا، وبعد شهرين، يقدم لي البنك ألفين»، «هذا يسمى نسبة الفائدة!» يلاحظ فابريس. هنا، ستصاب بخيبة أمل... فأنت تقدم للبنك ألف يورو وبعد مرور 12 شهرًا يصبح لديك ألف وعشرة يورو. بدا رزا قلقًا بعد العديد من التوضيحات والرسومات، فهمنا أنه كان يتحدث ببساطة عن قرض.. حاولنا طمأنته عندما شرحنا له أن في فرنسا أيضًا يمكن للمرء أن يطلب قرضًا من البنك لإنشاء تجارته.. فجأة أخرج أبي رأسه من هاتفه: «ها هي منشورات دوكلاند! قاموس الفارسية الفرنسية- الفرنسية الفارسية، الولوج على الفارسيةالأفغانية! بـ 45 يورو!».

عند مغادرته، دسّ أبي في يدي ورقة نقدية، لكي يهدي رزا القاموس الثمين.

26 فبراير

يمرر رزا المكنسة الكهربائية داخل غرفته، منذ خمس عشرة دقيقة، رغم أن غرفته ليست كبيرة. وفجأة اقتحم الصالون حيث أكتب على حاسوبي، وباشر كنس الأرضية الخشبية حيث يعشعش الفتات والغبار. أراقبه وهو يخصص وقتًا كافيًا، لتنظيف كل لوحة على حدة.. يكنس فوق حواشي الحيطان.. يتسلل بين بروز رادياتور التدفئة.. لا يتوقف عن تغيير الموصّل في نهاية مقبض المكنسة الكهربائية: رأس المكنسة الخشن الصلب، رأس المكنسة الخشن الناعم، الفرشاة الدائرية، المنقار الضيق الطويل. أنا وفابريس لم نقم بهذا التنظيف أبدًا، وبهذه الطريقة العميقة والدقيقة.. استولت عليّ حالة من تأنيب الضمير، فألقيت نظرة على النوافذ المغبرة والمعفرة بآثار الأمطار الموحلة، تركت كتابة روايتي وقررت غسل النوافذ.. فتحت نافذة الصالون، وتسلقت على كرسي، وبقطعة قماش رششت البلاط بهذا السائل الأزرق المثالي الذي يشبه الكوراكاو. عندما شعرت أن رزا ينظر باتجاهي، رددت أغنية أزنافور[13]، «رأيت نفسي بالفعل... في الجزء العلوي من الملصق...»، كما لو كان كل شيء طبيعيًا، كما لو

---

(13) شارل أزنافور مغنٍّ فرنسي بارز.

كنت في كثير من الأحيان أقوم بهذه الحركات الخبيرة، المتوترة والدائرية.. كما لو كانت لديّ أيضًا متطلبات عالية فيما يتعلق بالنظافة المنزلية.. دخل الضوء من خلال النوافذ التي لم تكن أبدًا أشد نظافة، والتي، بصراحة، لم تكن مطلقًا نظيفة.

* * *

يريد رزا أن يرافقني إلى الكنيسة؛ لقد اعتاد على العبادة الإنجيلية وجوقة المراهقين، وأغانيهم المتحمسة، وأرديتهم الزاهية الألوان، وإيمانهم المنفتح على الخارج، والأجساد المهتزة بالرقص، والصلاة التي تغنيها الجوقة، وصوت القس المتوهج. لا أعرف كيف أشرح له أنه سيكون الشاب الوحيد في هذه الكنيسة، وأن الحاضرين معظمهم من المسنين ذوي الشعر الرمادي، والوعظ سيكون طويلاً وهادئًا جدًا، والصفوف ستكون متفرقة، والأجساد بلا حراك بملابس كحلية وقاتمة، والصلوات تقال في الداخل، وبالكاد تهمس، وعدد قليل من الأصوات السرية، ستغني مزامير الكتاب المقدس.. خشيت أن يصاب بخيبة أمل، لكن في صباح اليوم، حدث شيء عجيب، لقد استبدلت العبادة باجتماع مع جينيفيف جاك، رئيسة سيماد، هذه الجمعية التي ظلت منذ سبعين عامًا تساعد المهاجرين والنازحين واللاجئين من جميع أنحاء العالم. سألت جينيفيف جاك بصوتها الواثق الحاضرين: «ماذا فعلت من أجل أخيك؟ كان هذا السؤال دائمًا يلاحقني، وأينما وجدت كان يجدني، كان محكمتي الصامتة. تردد صدى

شعارجمعية سيماد في أرجاء الكنيسة: «لا يوجد غريب على هذه الأرض. تتحدث الرئيسة عن كرم الضيافة.. عن جمال كلمة «ضيف»، والتي تعني بالفرنسية كلاً من المضيف والضيف، كما لو كانت الكلمة تعني الفعل ذاته والعناق نفسه.

نحن جميعًا ضيوف، نحن ضيوف رزا الذي هو ضيفنا.. يبدو أن كل كلمات هذه المرأة موجهة نحوه ولم توجد إلا من أجله.. أحاول ألا أبكي، لكن من غير جدوى. لم أعرف أبدًا كيف أتحكم بدموعي.. عندما كنت صغيرة، ظننت أنه سينتهي هوس البكاء من أجل لا شيء. حسنًا، ليس من أجل لا شيء، لا توجد دموع من أجل لا شيء. يمرر الميكروفون بين الصفوف، أقف لأقدم رزا.. عبّرت عن فرحي بمعرفته، وعبّرت عن أوديسته. رحلته المحفوفة بالخطر والمكلّلة بالشجاعة.. يصفق التجمع تصفيقًا حارًا.. لا أستطيع أن أصدق أن هذه الأجساد المتكتمة، المتهالكة والهشة، تنبعث منها هذه الأمطار من التصفيق البهيج.. أودّ لو يعرف رزا أننا أكثر عددًا وأكثر تصميمًا وأقوى مما نبدو عليه بأيدينا الهزيلة والمفتوحة. ربما سنعرف كيف نصرخ ونخدش لنجد ما تخلينا عنه على طول الطريق: الأمل العنيد والإخوة.

في نهاية الاجتماع، حاصرت النساء المسنات الصغيرات رزا، كن جميعهن يتكلمن في الوقت نفسه، شجعنه، وهنأنه، وسألنه عما إذا كان يحب إقامته مع أسرة فرنسية. لم يعد رزايعرف بماذا يجيب.. يردّ بأنه طاجيكي من طرف أمه وأفغاني من طرف أبيه،

وأن لديه ثلاث شقيقات وشقيقين.. لا يفهمن ما يقوله ويسألنه، على عجل، أسئلة أخرى.

لكن في خضم حوار الطرشان، يمر شيء ما، يتجاوز معنى الكلمات.

عندما غادرنا الكنيسة، أخبرني رزا أنه يريد الذهاب للتسوق والطهي. مشينا على طول أكشاك سوق ساحة مونج.. يقرأ رزا الأسعار على الألواح مذهولاً، فيلتفت نحوي، منتظرًا تكذيبي الأسعار، لا يمكن أن تساوي البطاطا2.50 يورو للكيلو، بلى! في كارفور، يبحث عن صلصة الطماطم، خصوصًا صلصة الطماطم الأرخص التي يجب أن ننحني إليها انحناءة الاحترام، لأنها على الرف السفلي القريب من الأرضية.

الأمير صاحب الكأس الصغيرة

27 فبراير

الآن يعرف رزا أرضية الشقة الخشبية معرفة جيدة، أو بالأحرى يعرفها لوحًا لوحًا.. إنه يعرف بالضبط أين يضع أطراف أصابع قدمه اليمنى لكي تكون الضوضاء أقل قدر الإمكان. أخبرته مرارًا وتكرارًا أنه يستطيع التحرك دون أن يقلق بشأن الصرير، ويمكنه سكب الماء في الحمام والاستماع إلى الراديو أثناء تحضيره وجبة الفطور، لكن رزا يريد أن يكون صامتًا أكثر فأكثر، صمتًا خرافيًا.

لم نسمع خروجه هذا الصباح، لم نسمع حتى صرير مفاصل باب غرفته، ولا احتكاك الجلد، عندما يرتدي سترته، ولا حتى صوت إغلاق باب الشقة.

أمام زبديتي الشاي أو الشوكولاتة الساخنتين، تساءلنا عن الحاسة السادسة التي تمكَّن رزا من تطويرها خلال سنوات الهروب، ليصير هكذا أشد حرصًا، عندما يخرج فجأة من غرفته متورم الجفنين من النوم.

- تأخرت كثيرًا جدًّا!

يلتقط سترته ويهرع وهو يطقطق ألواح الأرضية الخشبية مغلقًا الباب الخارجي بأقصى سرعة.

28 فبراير

كل يـوم عندمـا يعـود رزا مـن العمـل يقتـرح علـيّ أن نحتسـي الشـاي: «هـل تشـربين شـايًا؟» شـاي منقـوع جـدًا اسـمه دوغازيـل، وهـو يعنـي «الغزالتيـن» بالفارسـية. ينطـق رزا «دوهـازال» بصـوت خافت غير مفعم بالحيوية، وأعتقد أن هـذا الاسـم مألـوف بالنسـبة إليـه ويذهـب بعيـدًا فـي نهـر حياتـه. يصـب رزا الشـاي دائمًـا فـي أكواب مزخرفة يدويًا، والتي تعود إلى عائلة فابريس، وهـي أوانينا الثمينـة الوحيـدة. هـذه الكـؤوس الأربـع، التـي أحضـرت مـن الهنـد الصينيـة الفرنسـية فـي الخمسـينيات، يبـدو شـكلها متكـررًا بشـكل غريـب فـي وسـط أكـواب مونوبـري وزبديـات دوراليكـس (التـي لهـا ميـزة الصلابـة، فحتـى وإن وقعـت عشـرين مـرة علـى الأرض دون أن تتكسـر). أمـا بالنسـبة لصحوننـا الخضـراء والزهـرية؛ فقـد تلقيناهـا منـذ خمسـة وعشـرين عامًـا، مقابل الحصـول علـى خـزان كامـل مـن البنزيـن فـي محطـات الخدمـة خـلال رحلـة العطـلات الكبـرى. قبـل وصـول رزا، لـم نسـتخدم أبـدًا هـذه الكـؤوس الصغيـرة الهشـة التـي كانـت مخبـأة فـي أعلـى الخزانـة. وبشـكل أقـل الصحـون المتنوعـة الجميلـة التـي يضـع عليهـا رزا ثـلاث كعـكات سـابليه [14]صغيـرة، يخصنـي بهـا، كل يـوم، وثـلاث كعـكات لـه.

---

(14) Sablet هو كعك فرنسي يعدّ بالدقيق والزبدة ويحلّى وسطه بالمربى.

أتذكر حكاية أندرسن، الأميرة وحبة البازلاء[15]. الفتاة ذات الثياب الرثة، المبللة بالمطر، حينما طرقت باب القصر عند حلول الظلام.. ولكي يعرفوا ما إذا كانت الفتاة الشعثاء والممزقة الثياب هي بالفعل الأميرة التي تدعي أنها أميرة، جعلوها تنام فوق كومة من عشرين مرتبة ناعمة، وتحتها حرصوا على وضع حبة من البازلاء. وعند الاستيقاظ، سُئلت الضيفة الغامضة عما إذا كانت ليلتها مريحة. فأجابت «ليلة رهيبة!» قالت إنها تعاني من آلام ظهر شديدة، متسائلة لماذا كان سريرها غير مريح جدًّا. وهنا لا أحد شك بأنها تصلح أن تكون أميرة.

رزا هو الأمير صاحب الكأس الصغيرة الذي تناول طعامه وسط وحل مخيمات اللاجئين، والذي وصل عند مستضيفيه لا يمكنه أن يحتسي شايه إلا في كأس من الخزف الرفيع، ليعود مُجددًا ذلك الأمير الذي لم يتوقف أبدًا من أن يكونه.

(15) تتحدث القصة عن الأمير الذي يريد أن يتزوج من أميرة حقيقية، ولكن تواجهه صعوبة في العثور على الأميرة المناسبة له. في ليلة عاصفة غزيرة الأمطار سُمِع طرق على بوابة القلعة، كانت هناك فتاة تقف خارجًا، وهي في حالة يرثى لها بسبب المطر والريح، والماء يقطر من شعرها، قالت إنها أميرة حقيقية، فأعدّوا لها في غرفة نوم الزوار سريرًا صُفّ فوقه عدة مراتب مريحة، وتحت آخر مرتبة والقريبة من الأرض، وضعت حبة بازلاء جافة. وفي صباح اليوم التالي، اشتكت الزائرة للأمير والأم الملكة من الأرق، وعدم قدرتها على النوم، وتقلبها طوال الليل على السرير بسبب حبة البازلاء، وهنا اقتنعت الملكة والأمير برقة وحساسية الزائرة، وأنها مناسبة جدًّا لتكون الأميرة القادمة في القصر، وزوجة تليق بالأمير الذي بحث عنها طويلاً ووجدها أخيرًا.

1 مارس

يريد رزا أن يعرف ثمن إيجارنا.. أتردد كثيرًا كي لا أكذب عليه.. كيف سيفهم أن شقة 73 مترًا مربعًا تكلف ما يعادل ضعفي الأجر الأدنى لعامل مثله؟

- أنت تعرف يا دانيال، الإيجارات باهظة الثمن في باريس. نحن ندفع 2300 يورو.

- في السنة؟ يسأل رزا.

- لا، 2300 يورو في الشهر.

- لا! ليس صحيحًا؟

- بلى، صحيح.

- كيف سيدفع الناس؟

- بالضبط، لا يمكنهم أن يدفعوا.. قريبًا لن يبقى سوى الأشخاص الأثرياء جدًا من يمكنهم العيش في باريس، أما الفقراء جدًا؛ سيعيشون تحت الجسور والأغنياء جدًا تحت السقوف.

2 مارس

يذهب رزا أربع مرات في الأسبوع إلى مقر الجمعية حيث يدرّس المتطوعون اللغة الفرنسية للمهاجرين، بينما نشرب شاي دو الغزال في كؤوسنا الهندية الصينية الثمينة، يُريني رزا دفترًا حيث كتب ملاحظاته، وحيث كتابته منتظمة تمامًا، ودرسه الأخير

في قواعد اللغة.. إنه مكرس للضمائر بأنواعها، وأقل ما يمكننا قوله هو أنه غير مفهوم. يسألني رزا: «لماذا تقولون بالفرنسية: أعطيتها لهم؟ ولماذا لا نقول: أعطيتهم إياها؟»

اللغة الفرنسية، هذه الأرض الرائعة، لا ترحب بالغرباء بشكل رائع...

3 مارس

كؤوس الهند الصينية، شاي دو غزال، كعك السابليه بالزبدة، يسألني رزا عما كتبته اليوم.. إنه أمر غريب، لم يسألني أحد هذا السؤال أبدًا. عندما يعودون إلى المنزل من العمل والمدرسة، يقول لي فابريس والأطفال: «هل كتبت شيئًا جيدًا؟ لكن ما أكتبه ما زال مستترًا. أنا أكتب، وهذا كل شيء.. أنا أكتب ولا أحد ينظر إلى ما أكتبه من وراء كتفيّ.. قلت له إنني كتبت اليوم قصيدة عن اللغات المختلفة التي ستصبح، في يوم من الأيام لغة واحدة فقط.. لغة تتذكر كل شيء.. اللغة التي ستكون الذاكرة المفتوحة على كل شيء.

قال لي رزا: «اقرئي لي»

والغريب أني فعلت ما طلبه مني طواعية، قرأت له القصيدة.

سنكتب دون خلاف في اللغات

بكلمة الماء والهواء

أفقًا من تلوينات الأشعار

ستتكلم الرقبة عن عنقها

سيتكلم الفأر ذكرياته عن الطاعون

سيتكلم الطفل قصيدة إلوار

ستستعيد سكاكين بورخيس مبارزاتها

وستسكب شجرة اللوز أزهارها البيضاء من أجل الجمال

سيأتي عهد التحولات

وستكون كتابًا فوق المقعد الحجري

وذهب الأشنات البراق.

سيادة الأخطبوط

3 مارس - منتصف الليل

هذا الأسبوع، كانت حصتنا من سينما الجمعة، فانحشرنا أربعتنا على الأريكة لمشاهدة فيلم «مصروف الجيب» لفرانسوا تروفو، أحد أفلامي المفضلة.. أحببته منذ طفولتي المبكرة، وأحببته في العشرين، وأحبه وأنا في السادسة والثلاثين، وأنا أعلم أن حبي في السادسة والثلاثين لم يتغير.. عندما دخل رزا إلى الشقة، وجد الفيلم يوشك على نهايته. طلب مني أن أخبره قصة الفيلم، فوصفت له البلدة الريفية الصغيرة خلال فترة السبعينيات، وملل الأطفال في المدرسة، وخاصة باتريك، شخصيتي المفضلة، الذي يعيش بمفرده مع والده المعاق الذي فتنته أمّ أفضل صديق له في الفصل. يلاحظ باتريك كل تصرف لهذه الأم الرقيقة والمثالية.. كان حلمه أن تكون لديه أم.. وأنا أنطق هذه الكلمات الأخيرة، شعرت بالخجل والتردد، فلم أعد أجرؤ على النظر إلى رزا.

يوجد بيني وبين رزا حضور متوهج وشاغر؛ إذ هناك غياب فادح للأم.

أين هي أم رزا؟ أمه الوحيدة؟

أنا أم مثل الأمهات جميعهن، أنا الأم الوحيدة القاسية، التي تعيد اليتيم إلى سنوات شقائه.

4 مارس

يمسك رزا في يده تمثال ديميتر إلهة الحصاد التي جلبتها من مصر وتعود إلى العصر الروماني.. لها أنف مريع، وقد شكلتها من التراب يدان حيتان مثل يديّ. منذ ألفي عام وهذه الديميترية تحمل تاجًا رفيعًا على رأسها.. من أجل هذا التاج الفريد اشتريتها. يقول لي رزا إنها تشبه التماثيل التي كان يلعب بها في أفغانستان في منزل والديه. فجأة أصبحت نظرته المتيقظة في مكان آخر، في ماض يهتز بالتفاصيل والضوضاء. في منزله -كان يبتسم ابتسامة حالمة- حيث يوجد أيضًا الماعز والحمير والكلاب.

هل لديك صور عن تلك المرحلة؟

لا، لا أملك صورة واحدة.. دُمّر كل شيء.

رسم رزا تصميمًا على ظهر ظرف بريدي يمثل جبالاً على شكل أقواس، بيته على سفح الوادي، الشاحنات التي تغلق مدخل الوادي هي لـ «الطالبان». يقول لي: إنهم «خطيرون جدًا جدًا».

الحادية عشرة ليلاً

توجد جزيرة، يا رزا، تدعى كورسيكا...

حدثته عن الخلجان الزرقاء، عن الأخطبوطات التي تعرف كل شيء، عن ثمار أشجار أربوتوس المهيجة، عن الخناجر السرية لنبتة الوزّال، عن مخالب الجبال الطويلة التي تغرق في الزمرد السائل.. أخبرته أن كورسيكا الجميلة لدرجة أنك لن تستطيع النظر إليها فترة طويلة دون أن تغمض عينيك، وأن أريج الأحراش يضمك بين أحضانه، وأنّ عليه أنْ يذهب إلى هناك ذات يوم، ما دام يحب الزهور والجبال كثيرًا.

5 مارس

احتفلنا بعيد ميلاد رزا الثاني والعشرين برفقة جيراننا: دافيد وسيلين وابنتهم الصغيرة سوزان. نجلس ثمانيتنا حول طاولة الفورميكا الزهرية التي مددت جنباتها بهذه المناسبة. يجلس رزا في نهاية الطاولة صامتًا مرفوع الهامة.. قدم له ماريوس ونوح رسومات وحيوانات من الأوريغامي.. قدم له ديفيد خريطة كبيرة للعالم بالأسود والذهبي ليعلقها على جدار غرفته، وأنا قدمت له

كتابًا من رسومات هيروشيغ[16]، يفتح مثل الأكورديون. أخبر رزا أني أحب الرسام هيروشيغ حد الجنون، وأن كل لوحة من لوحاته عالم صغير كامل، عالم مثالي، حيث يمكن للمرء أن يعيش فيه أطول وقت يشاء. وأن نتجول، حسب لون روحه، على الطرق الريفية، أو على الجسر المحدب الممتد فوق النهر، أو على جانب جبل مملوء بالثلوج.. ينفخ رزا على شموعه، يبدو وجهه سعيدًا أكثر مما هو حزين.. يحيل عيد ميلادنا دائمًا على ذكرى من ولدتنا.

6 مارس

عاد رزا من فصله المسائي. وجنبًا إلى جنب، قرأنا مرة أخرى قائمة الكلمات التي دوّنها في دفتره، بخطه الدقيق والجميل:

سرطان

حصوات الكلى

النزيف

ارتفاع ضغط الدم الشرياني

غثيان

التهاب المعدة والأمعاء

أمام كل كلمة، كتب الترجمة إلى لغة الداري، وهي كتابة لا علاقة لها بالشخص الذي أعرفه. هي أكثر ميلانًا وخفة ونضجًا،

(16) وُلد أندو هيروشيغ (1797 وتوفي في 1858) من عائلة من الساموراي، وتسلم من والده وظيفة ضابط من رجال الإطفاء في محكمة شوغون، لكنه فقد والديه عام 1809. تعلم الرسم منذ صغره وطوال مساره الفني عرف بإبداعه المدهش والمبتكر. عرف أيضًا بسلسلة له تضم أكثر من ثمانية آلاف عمل.

بيضاوية الشكل.. هذه هي كتابة رزا. كما أن صوته ليس ذلك المتلعثم والثقيل والمتقطع الذي أسمعه عندما يتكلم بالفرنسية.

لست متأكدًا من أن تعلم الضمائر بكل أنواعها وإملاء كلمة «النزيف» مفيد جدًا للتقدم في تعلم اللغة الفرنسية. بنبرة مشجعة، وأكثر ثقة، أغتنمُ فرصة تواجد رزا، محاولة طوال اليوم أن أشرح له التعبيرات الفرنسية الشائعة، الجنس المؤنث والمذكر، التركيب الزمني والصرف.. أجعله يكرر الكلمات والأصوات «على» و«في» التي يجد صعوبة في نطقها. وفي بعض الأحيان، في كثير من الأحيان، لا أقول له أي شيء.. أتركه دون إزعاج.. كم هو مؤلم ألا تكون قادرًا على تطويع لسانك... والبحث دون جدوى عن الكلمات، ومع ذلك لا تنجح في أن تجعل كلامك مفهومًا.

ما هذا الصبر للبدء من جديد! ما هذه القوة! وما هذا الأمل! في أن يلقي جسده نحو لغة جديدة، مختلفة تمامًا عن لغة طفولته. مختلفة تمامًا عن اللغة النرويجية التي اضطر رزا أن يتعلمها ثم تخلى عنها.. لن يتكلم أبدًا اللغة الألمانية التي قهرها. ما كل هذه الجهود... وكل هذا الإحباط!



7 مارس

قمت أنا ورزا بأعمال منزلية.. يمد خرقته أمامي، ليُريني رزا بلاط الحمام ويتساءل عما إذا كنت قد نظفته من قبل (وهذا أمر مزعج بعض الشيء، لأنني كنت قد لمّعته قدر الإمكان). يفرك

رزا بقوة أكبر بكثير مني، إنه يستخدم كمية لا تصدق من مواد التنظيف.. ينظف السطح الخارجي للثلاجة (وهذا ما لم يخطر في بالي أبدًا). يغسل باب الحمام، وتحت إيقاع حركاته القوية تخلى عن لونه الرمادي المعتاد لصالح اللون الأبيض الناصع؛ مما جعلني أشعر بالخجل.

كيف كان يعيش في قذارة الشارع، المزابل، والملاجئ، ووحل مخيمات اللاجئين؟

كيف استطاع الأميرصاحب الكأس الصغيرة أن يتحمل كل هذه القذارة؟

اشترى فابريس للعشاء نبيذًا أحمر وعشرات القطع من الأجبان المختلفة.. استغل الفرصة ليوضح لرزا أن هذا النوع مصنوع من حليب البقر والآخر من حليب الماعز والآخرمن حليب النعجة.

- دانيال، النعجة هي أنثى الخنزير، يؤكد نوح.
- أنثى الخروف! يصحح أخوه.
- نعم، هذا ما كنت أود قوله! الخروف! لأنك تعرف يا دانيال، نحن لا نأكل جبن الخنزيرة في فرنسا!
- يسأل رزا عن الجبن.
- من الحليب، فقط من الحليب.
- ويشير بإبهامه إلى قشرة سميكة كثيفة:
- هذا، ليس حليبًا!
- نعم! لكن من حليب قديم!

يضحك رزا مشمئزًا.. هذه الحركة أسعدت الطفلين، وليبرزا مكرهما شرعا يأكلان قشرة الجبن.

-تذوّق يا دانيال! هذا هو الأفضل!

- هيا، استطعمه! إنه مليء بالنتانة! إنه جيد جدًا لصحتك!

يخبرنا رزا أن الجبن في أفغانستان يشبه الزبادي، يتخمر بضعة أيام فقط. يقول فابريس: «هذا عمره عامان». «غير صحيح! يقول رزا متعجبًا وضاحكًا ضحكة طويلة انخرطنا فيها جميعًا. يتذوق قطعة من جبن الماعز الطازج على قطعة من الخبز الفرنسي. نشاهده يمضغه.. «جيد جدًا!» يقول. يتذوّق أيضًا جبن الكونتي، والروبلوشون، وجبنة الكاوس الزرقاء، والبيكودون، وجبن التوم القديم بقشرته الخضراء. استطعم كل شيء، يتناول ويكرر التناول...

ثم بدأ بإحصاء أنواع الحيوانات الغريبة -المحار، قنافذ البحر، الأخطبوط، القواقع- التي تؤكل عندنا نحن الفرنسيين، ولكن ليس في منزلي، أحب الذين لا يأكلون الحيوانات، لكن بارتياب، (أو بالأحرى، يبقيني بهذا الحب) أفضل تركهم بسلام. يجب مع ذلك أن أعترف أنه في كل عام في كورسيكا، أقتل قنافذ البحر بالحصى على الشاطئ، قبل التهامها تحت الشمس: إنها الجنة.

- هل تأكلين قنافذ البحر؟ يسأل رزا.

- أحبها!

- قنفذ[17]... كبير جدًا!

- قنفذ؟ لا... إنها صغيرة جدًا...

يحاكي رزا قنفذًا بحريًا عدوانيًا يرفع السلاح، وهنا فهمت أنه يفكر في الدب.. أريه على الإنترنت صورة لقنفذ البحر. مرة أخرى تلعلع ضحكته في الغرفة فنضحك معه. عندما يضحك رزا، أشعر بسعادة فريدة بالسموّ. كما لو كنا نتسلق جبلًا نحو أزهار الأعالي، ونحو الهواء الأزرق والخفيف، نبتعد أكثر فأكثر عن أنهار الطين في قاع الوادي.مكتبة .. سُر مَن قرأ

يسألني رزا عن حيواني المفضل، يجيبه ماريوس بدلاً عني: «الأخطبوط!»

نحن «نحب الأخطبوطات»، يضيف نوح.

- إنهم يبصقون الحبر على أمي دائمًا! في إحدى المرات بصق الأخطبوط على عينيها! يقهقه ماريوس.

- يختبئ أبي تحت الماء، دون أن يتنفس، ليمسك بها بيديه وهي تخرج من مخابئها.

- حسنًا، لا يخرج هكذا! يجب علينا أولاً أن نزعج الأخطبوط بعصا داخل مخبئه الصخري. بعد ذلك، يدرك الأخطبوط أنه لم يعد آمنًا في جحره، وبعد فترة قصيرة يخرج. وهنا، يمسك به أبي!

---

(17) هناك تشابه لفظي بين Oursin قنفذ البحر و ours الدب

- لكن أولاً، أبحثُ عن الأخطبوط.. هل تعرف كيف تجد الأخطبوط يا دانيال؟ بفضل عينه! إنها العين التي نراها أولاً!

- لديها عيون سوداء على شكل مستطيل.

- ومنقارا! في أحد الأيام عض أمي أحدها.

- حتى أنها أبقت علامة على المعصم مدة طويلة. كانت سوداء وأرجوانية...

- ولكن حدث ذلك مرة واحدة فقط، عندما نمسد الأخطبوطات، تصبح لطيفة جدًا!

- في الصيف الماضي أمسكنا اثنين وعشرين!

- وفي إحدى المرات سبح أخي ساعة كاملة مع أخطبوط ملتصق ببطنه! لم يرغب الأخطبوط أن يتركه! كان جميلاً جدًا، على بطن ماريوس...

- نعم، صحيح! بعد ذلك وجدنا علامات مصاصته في كل مكان جسمه!

- لكن يجب أن تعرف، يا دانيال، أننا لا نأكل الأخطبوطات أبدًا... نطلق سراحها... خصوصًا وأنها موجودة هناك، قبلنا، منذ فترة طويلة جدًا، لقد كانت هناك منذ مئات الملايين من السنين!

- وهي تملك ذكاء شديدًا، لديها تسعة أدمغة!

- ماريوس محق، لهذا يجب أن نبقى متواضعين ما دمنا بدماغ واحد.

إذا انتهت الحرب

9 مارس

هذا هو يوم عطلة رزا. أنا أكتب في الصالون، وهو يعد الخبز الأفغاني في المطبخ، خبز كبير مسطح ودائري، به أخاديد متحدة المركز، تملأ رائحته اللذيذة الشقة بأكملها.

نحن نأكل الخبز الساخن مع التمور، يسألني رزا عن صورة الرجل الذي أمامنا، في المكتبة.. أخبره أنه أوسكار وايلد.. يخبرني أنه رآه في المترو على ملصق، كان أنيقًا جدًا.. كانت هناك بعض السطور المطبوعة بجانبه.. قرأها رزا، لكنه لم يفهمها، يسألني عما سأفعله اليوم.

- سألتقي بطلاب المدارس الثانوية وسنكتب (بويزي).

- شعر، قال رزا.

- شعر، أجبته.

يريد رزا أن يعرف ماذا يجب أن نفعل لكي نكتب الشعر.

أقول له: «يجب أن تحسن الإنصات»

ماذا سأسمع؟

كل شيء.

أضحكه كلامي.

فكر برهة وقال لي: «أعتقد أنه جميل جدًا أن تكتبي الشعر».

أكتب روايتي بينما كان ماريوس ونوح يعكفان على زخرفة قماش جنبًا إلى جنب على الأريكة، مثل عجوزين من الأيام الخوالي. ينظف رزا المطبخ. أتساءل ما الذي ينظفه جيدًا؟ ظننت أنني غسلت بالفعل كل ركن... شغَّل الراديو الموضوع على حافة مجلى الغسيل. ونظرًا لأنني آخر من استمع إليه؛ فقد وضعته على موجة محطة (فرنسا تغني). نسمع جو داسان وشانزليزيه، يردد رزا اللحن، إنه لأمر غبي، لكن ما يؤثر بي أن هذا الشاب الأفغاني يستمع إلى أغنية فرنسية تعود إلى خمسين عامًا، ومع ذلك يدندنها في المطبخ.

أستمع إلى محطة (فرنسا تغني) لأنني آمل دائمًا أن يمرروا أغنية «عجوزي» لدانيال غيشار، و«صراع في الشمس» لإيتيان داهو، و«فتيات الفجر» لويليام شيلر، و«الموت على المسرح»، لداليدا و«الضاحية الحمراء» لرونو. في كثير من الأحيان، أنتظرمن غير جدوى.

يلعب نوح ورزا لعبة الشطرنج وهما جالسان في الصالون.

– دانيال، أين كنت تعيش عندما كنت في مثل سني؟

– عندما كان عمري سبع سنوات، أنا...

– لا، سأصبح في الثامنة من عمري بعد شهر!

- معذرةا عندما كنت في الثامنة من عمري، كنت أعيش في أفغانستان.

- وعندما أصبح في مثل عمرك... عندما أبلغ الثانية والعشرين، أين ستعيش؟

- ربما في أفغانستان.

- ربما! إذا انتهت الحرب.

10مارس

حصل رزا أخيرًا على القاموس الفرنسي الفارسي الذي أهداه إياه أبي، وأمضى ساعة في فك شفرة مئات الكلمات وبصوت مرتفعٍ، ثم تنقلب اللعبة: الأمر متروك لي لأقول الكلمات باللغة الفارسية، وذلك بفضل النسخ الصوتي المرتبط بكل كلمة.. يصحح رزا نطقي: ومهما حاولت التطبيق؛ فقد كان رزا غير راض عني، يجعلني أكرر إلى ما لا نهاية الصوت الشهير للخاء يقول رزا: «خي»، وبدوري، أقول: «هي»، من المؤكد أنه يريد النطق السليم والممتاز.. أستاذي لا يوافق. مرة أخرى، يفصل نطق «خي، خي، خي» مرتبكة، أنطق: «هي!» لا، ليس هناك تقدم. لنعيد الكرة مرة أخرى ونبدأ من جديد. بشكل عام، بعد خمس وعشرين محاولة، عندما تفشل تلميذة في تحقيق ما هو متوقع منها، يُقال لها إنها أحرزت تقدمًا لا جدال فيه وأننا سنحاول القيام بذلك لاحقًا وبشكل مختلف، لكن رزا ليس من هذا النوع من المعلمين.. يجب

أن نستمر في تبادل نطق «خي» بشكل محموم، كما لو أن رزا لم يشك للحظة أن «خي» السليمة ستخرج في النهاية، رغمًا عني أو بطريقة سحرية، من شفتي.

* * *

يعود رزا حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً، ويغلق باب الشقة أقوى قليلاً من المعتاد.. يمشي بتثاقل قليلاً على الأرضية الخشبية.. ألقى علينا التحية بصوت ضاحك مختلف عن الليالي الأخرى.. يسألنا إذا كنا قد قضينا أمسية جيدة، يفصّل نطق الكثير من الكلمات.

- نعم دانيال، وماذا عنك؟

يجيب أنه أمضى ليلة سعيدة. يحدق فينا ويسألنا مرة أخرى. إذا كنا قد قضينا أمسية جيدة.

- نعم دانيال، أمسية جيدة جدًا. وأنت أيضًا، أليس كذلك؟

إنه ثمل تمامًا.

الرهبة

11مارس

تزورنا المساعدة الاجتماعية المكلفة بحالة رزا في المنزل.. تعمل هيلين لصالح الجمعية الاجتماعية لمساعدة المهاجرين، ويجب أن تقيّم الفترة الأولى من تعايشنا. أخبرتني عبر الهاتف أنه لا ينبغي لأحد أن يتردد في التحدث بصراحة عن المشكلات التي تنشأ، على سبيل المثال: قواعد الحياة المشتركة التي لا نتفق عليها، والمسكوت عنها، والمضايقات التي يمكنها، مع الوقت، أن تؤدي إلى التوتر، ولكن يبدو أن رزا وفابريس وأنا نفكر جميعًا بفكرة واحدة وهي: أن نقول لهيلين إنها تقوم بعمل رائع، وأنها تقاتل بأيدٍ عارية ضد التنانين المصابة برهاب الأجانب، وأنه بفضلها تمكّن أولئك الذين لم يكن بمقدورهم أن يلتقوا أبدًا من أن يجتمعوا أخيرًا على الخبز الأفغاني المقرمش والجبن ذي القشرة المخضرّة.. جلسنا نصف ساعة لنخبرها عن بهجة حياتنا اليومية، كما لو كنا قد أعددنا عرضًا مسرحيًا بغرض إقناعها.

تخبرنا هيلين أن هذه الفترة صعبة بشكل خاص وأن سامو الاجتماعية تكافح للعثور على باريسيين مستعدين لاستضافة اللاجئين. لا أريد أن يسيء رزا تفسير كلماتها وأن يتخيل أن وجوده

قد يكون عبئًا علينا؛ لذلك أقول لهيلين: إذا كان الناس يترددون في الترحيب بشخص ما؛ فقد يكون ذلك بسبب رهبتهم، وأعتقد أنه صحيح.. من الصعب للغاية، الذهاب في اليوم الأول إلى الآخرين في الساحة، والقيام بالخطوة الأولى، واقتراح على شخص غريب اللعب معك، وانتزاعه من محيطه المألوف، وإخراجه من خجله. أتذكر أنني شاهدت التلاميذ في الصف الأول الذي كنت سأدرس معهم، واحدًا تلو الآخر، في اليوم الأول من المدرسة، وقد قلت لنفسي أنني لن أكون قادرة أبدًا على التحدث إلى أي شخص. وأود أن أمضي السنة وحدي في ركني. بدت لي هذه الفكرة أقل فظاعة من مقابلة شخص غريب.

* * *

لن أتناول العشاء الليلة في المنزل. شعر رزا بخيبة أمل، لن أتذوق الطبق المذهل الذي أستغرق في إعداده ساعتين. طبق من الأرز بالثوم والبصل والطماطم والباذنجان والجزر والزبيب والكزبرة والفلفل الحلو.

عندما يطهو رزا، فهو يشعر أنه في مسكنه، ولا يحاول أن يبدو مختفيًا وغير مرئي وصامت.. يشعر أنه في وطنه. وأعتقد أيضًا، أنه ليس بعيدًا عن أمه. من أين تأتي بهذه الحركات والوصفات، إن لم تكن من لدنها؟

12 مارس

يضع رزا ركبتيه فوق مجلى المطبخ. الأرضية والجدران بيضاء بالرغوة.. يتحكم بتوازنه فوق....، وهو يشرح لي أنه قرر غسل كل شيء لأن الجدران كانت لزجة ولاصقة: ولكي أستوعب الأمر، وضع إصبعًا فوق باب الخزانة وتعمد عدم تمكنه من انتزاعه. ويعود السبب في ذلك إلى غياب وجود غطاء التهوية، فإن المطبخ -وهو مطبخ يسافر عبر الزمن، مفروش بأثاث يعود إلى خمسينيات القرن الماضي مصنوع من الفورميكا البنية- لا محالة سيكون لاصقًا ودهنيًا ولزجًا.

يريني رزا الفرن من الداخل، وقد أصبح مصقولاً جيدًا، وهو يهتف: «نيكل!»[18] تعلم هذه الكلمة في فصله المسائي المخصص لقواعد النظافة. كان الدرس مصحوبًا بمقال نشر في إحدى الصحف يوضح أن الفرنسيين مشهورين بالقذارة، ولا يستحمون إلا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع.

«نيكل! نيكل!»يكرر رزا، وهو يقطّع الكلمة حرفًا حرفًا، وبدقة أثناء نطقها.

---

(18) المقصود: جديد.

وأنا أقول له: «برافو دانيال! وكأني أهنئ طفلاً، ليس على عمله البارع الذي أنجزه، وإنما على بهجة حضوره المشرق.

13 مارس

يتغير وجه رزا بين ثانية وأخرى جسدا وروحا، فتتعتم ابتسامته الطفولية التي كانت تمسك العالم بين يديها وتتجمد بصلابة لا تصدق. أشعر أنه قادر على فعل عنيف. عنف البقاء على قيد الحياة الذي يخترق الأجساد المألوفة، والأشباح والأنقاض.

14 مارس

يخبرني رزا أنه يريد التسجيل في صالة للألعاب الرياضية، وإذا أمكن الأكثر رخصًا، لكنه لا يعرف كيف يعثر عليها؛ لذلك أبحثُ في الإنترنت، وأقارن بين الأندية والمعدات والتخفيضات (أولئك الذين يعطونك منشفة، والذين يأخذون منك خمسين سنتًا من أجل الاستحمام). أنا أتعقب الفخاخ، والنجمات، ونفقات إعداد ملف الانخراط. أبحث عن صالة الألعاب الرياضية المثالية القريبة من المنزل أو إلى عمل رزا، والتي ستكون مضاءة بنور النهار، وواسعة ورخيصة، متمنية بألا تكون رائحتها كريهة. هناك شيء غريب في حماسي.. يبدو أنني خائفة، أخاف أن يخيب أمل رزا. أخشى أن تخيّب باريس أمله.

17 مارس

ذهب فابريس إلى الجبل، ومكثنا نشاهد أنا ورزا، وماريوس، ونوح فيلم السلحفاة الحمراء، ملتصقين على الأريكة، نشكل جميعًا جزيرة وأسرة محتملة.

السلحفاة الحمراء فيلم رسوم متحركة صامت، فيلم يتحدث اللغات كلها، رجل يلقيه البحر في جزيرة مهجورة، يصرخ، يهلوس، يبني طوافة، لكن السلحفاة تدمر قاربه المؤقت ثلاث مرات مانعة إياه مغادرة الجزيرة، معَ أن الرجل يقلب السلحفاة على ظهرها، لأنه يريدها أن تموت، لكنه في الوقت نفسه يشعر بالندم، فيبادر إلى إنقاذها، لكن فات الأوان؛ السلحفاة الميتة تتحول إلى امرأة. الفيلم ذو جمال بطيء منوّم تنويمًا مغناطيسيًا، يحيل على معنى المنفى، والأسرة التي تحلم، والحب. كانت هذه الرموز تمر بيننا نحن الأربعة.

يصبح للرجل والمرأة طفل، يمسكانه بين أيديهما.. وبعد زمان طويل، يشيخ الرجل ويموت.

في نهاية الفيلم، يتهجأ رزا جملة واحدة: «مات الأب» انقبض قلبي وانقطعت أنفاسي.

لا أستطيع التحرك من مكاني، ولا أقدر على الالتفات جهة رزا، لأن عينيّ اغرورقتا بالدموع إلى درجة أنك إذا لمستني وململتني مليمترًا واحدًا، فإنني سأجهش بالبكاء.

أمي

17 مارس، منتصف الليل

عينا رزا مكللتان بهالتين، وجسمه يضطرم بالحمى وبشرته أصبحت ندية.. أطلب منه أن يصف لي ما يشعر به.. يومئ بأنه مصاب برعشة شديدة وبحركة دائرية من يده يخبرني أنه مصاب بالدوار وهو يلمس اللوزتين.. أعطيه دواء دوليبران للحمى، ومحلولاً للحلق وحلوى بالعسل، لأنها لا يمكن أن تسبب له أي ألم، كما اعتادت أمي أن تقول عندما كنت صغيرة، حينما أصاب بالتهاب اللوزتين بضعة أيام مباركة أبتعد فيها عن المدرسة.. أقول لرزا أن يذهب إلى فراشه. أعطيه منشفة مبللة ليضعها على جبينه، لن يحدث له أي مكروه ولكن مرضه يبلبلني. عندما نعيش في الشارع، كيف يمكننا أن نتجاوز هذه الساعات العصيبة؟ عندما يعاني المشردون من الحمى، وعندما يصابون بالذبحة الصدرية.. ماذا يفعلون حيال ذلك؟

أستطيع أن أسهر بجانب سرير رزا، وأن أشتري له كعكة الليمون ألف مرة من شارع موفيتارد التي يحبها كثيرًا، وأجعله يكرر بصبر كل الكلمات التي يحرّف نطقها، وأصطحبه إلى حديقة الحيوانات، وأفرقع أصابعي كي يظهر للعيان تابير ملاوي، فإن كل ذلك لن يغير شيئًا، من أن رزا يعيش من دون عائلة.

18 مارس

يريد رزا، على الرغم من حماه وإرهاقه، مرافقتنا إلى متحف المعادن في حديقة النباتات.. حتى في الأروقة المضيئة للزهور، حيث يتزحلق الأطفال على التروتينيت[19]، يحافظ رزا على مشيته العصبية والهادئة. يتقدم مطأطئًا رأسه بانتظام، ويرفع عينيه متمعنًا في المناظر الطبيعية على مدار 180 درجة. أستطيع أن أرى أنه لا يشعر بالأمان في هذه الأماكن المفتوحة، حيث يمكن لأي شخص أن يأتي من أي جهة، رغم أن المعرض غارق في ظلام مطمئن.

كان رزا مفتونًا بالمعادن، يردد استغرابه «أوووووه!» نشوة وطربًا. لا يريد أن يعرف ما إذا كان الحجر من الكوارتز أو من الذهب أو من الحجر الكريم. يريد فقط أن نقول له: من أين تأتي الحجارة؟ من أي ركن من أركان الأرض؟ أخيرًا، اكتشف حجرًا مصدره من أفغانستان. ينظر من خلال الحاجز الزجاجي ويخبرني أنه يعرف هذا الحجر جيدًا، ثم يبدأ في التحدُّث بسرعة، بمزيج من اللغة النرويجية والفرنسية المتهالكة، والتي لا أفهمها. يتحدث عن الجبال وطالبان والثروة الكبيرة والدمار. يبدو أن لا شيء يمكن أن يوقف نهر كلماته.. جبهته مبللة بالعرق.. الحمى تجعله يهذي. لا يرفع عينيه عن الحجر الحقيقي جدًا والقريب جدًا.. هذا الحجر

(19) الدَّرَّاجَةُ: هي دراجة صغيرة ذات عجلتين صغيرتين، تتحرك بقوة دفع قدم واحدة وذات مقبض لليدين.

هـو بلـده.. تلـك القطعـة الحقيقيـة مـن اللحـم المنتزعـة مـن بـلاده. عندمـا يسـترجع طفولتـه فـي قـرارة نفسـه، دائمًـا مـا يعلـو محيـا رزا التعبيـر الحـاد والمتوهـج نفسـه.

فـي طريـق العـودة ونحـن نصعـد شـارع لاسـيبيد، كتبـت هـذه القصيـدة فـي رأسـي:

الحنين إلى الوطن

في المتحف أفون

تتلألأ

حجارة كثيرة

باذخة

إحداها

بلون الكبد

تعود إلى ملايين السنين

تأتي من بلاده

يحكي رزا

عن تماثيل بوذا في باميان

عن غبار الخراب في الليل

لقد قتلوا الموتى أيضًا.

أدعو رزا وطفليّ إلى مطعم يوناني صغير ودافئ، قريب جدًا من المنزل. عندما سمع رزا الزوجين اليونانيين مالكي المطعم

يتحدثان وراء الكونتوار، راح يبتسم ابتسامة بلا فرح، جامدة في الذاكرة. لأول مرة، يخبرنا عن الأشهر الخمسة التي قضاها في اليونان. تلفظ بجمل قصيرة، في الغالب غير مرتبطة ببعضها بعضًا، وكأنه ينتزع عشوائيًا بتلات من زهرة ذاكرته الشاسعة: أثينا جميلة جدًا. يرغب أن يعيش هناك. المتاحف في كل مكان، لكن الشرطة كانت تضربه.. يصرخ ماريوس: «الشرطة كانت تضربك؟ ليس من حقهم!» بالنسبة لماريوس، الشرطة هي نظام دولي من الرجال المهذبين الذين يلتزمون بمدونة الأخلاق الحميدة من باريس إلى بكين. يواصل رزا قصته: كانت الشرطة تضربهم، في الشارع وفي المخيمات. عاش رزا داخل خيمة وسط غابة (فيما بعد، أدركت أن رزا يتحدث عن غابة، لأن مخيم اللاجئين بالنسبة إليه كان غابة). لكي يعبر الحدود بين تركيا واليونان؛ فحص رزا خريطة جغرافية على جوجل مابس. ركض ليلة كاملة، دون أن يلاحظه أحد، فوصل إلى اليونان.. سرق الخضروات من الحقول للأكل. ما زال ماريوس يحتج: «لكن ما زال من حقنا عبور الحدود والذهاب إلى البلد الذي نريده! من دون اللجوء إلى الاختباء!»

شيئًا فشيئًا، بدأت تظهر لنا الأخاديد التي حفرها رزا على خريطة العالم، كما لو أنه مزق ثيابه ودعانا لنرى جسده المخطّط بالجروح.

19 مارس

«إذا أردت دعوة شخص للنوم في الغرفة، يا دانيال، فلا تتردد! يمكنك تحويل المقعد على الأرض إلى سرير»، يرد رزا بأنه يعلم جيدًا أنه يمكنه النوم على المقعد الطويل... لأنه يقضي لياليه كلها نائمًا عليه. يشرح لي أن السرير بالنسبة له، مرتفع جدًا. في أفغانستان، كان ينام على مرتبة كانت أمه تخزنها كل صباح بعد أن تربط زواياها. يقلد حركات أمه، يربط عقدًا خيالية. يقول: «أمي». هذه المرة الأولى.. أريد أن أسأله ألف سؤال، أين هي أمك؟ متى رأيتها آخر مرة؟ منذ متى لم يسمع صوتها؟ ما اسمها؟ كيف تمشط شعرها؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟ لكنني لم أجرؤ على طرح أي سؤال من هذه الأسئلة.

* * *

يرافقنا رزا إلى ساحة مدرجات لوتيتيا، وهي البطن والقلب النابض في الحي، حيث يشتبك المصارعون، حيث يلعب المسنون الكرة الحديدية، حيث يضحك المراهقون بصوت مرتفعٍ، ويتشاتمون، ويصورون أنفسهم بالهواتف، ويتسكعون في المدرجات، حيث يتحدث الأزواج الصغار على المقاعد، وحيث يلعب الأطفال كرة القدم، وحيث يحاول الأطفال الصغار الصعود حبوًا فوق المزلقة تحت صراخ آبائهم: «ليس رأسًا على عقب يا إيمًا! سيصطدم بك طفل أكبر! أضع حاسوبي فوق ركبتي وأكتب، بينما ماريوس ونوح ورزا يمررون الكرة بينهم. لا بد أن رزا قد

لعب كرة القدم في طفولته. كان مرتاحًا، ساقاه مرنتان وسريعتان، تلتصق الكرة بقدميه. لم أره أبدًا يبتسم باسترخاء عميق. أنا لا أكتب، لم أعد أكتب: أنظر إلى هؤلاء الثلاثة الذين يبدون مثل الإخوة.

يدفع ماريوس الهواء بقوة من جسده النزق والمشاكس. نوح خفيف مثل ظل طائر مرح. يجب ألا أفكر باستمرار في أم رزا، فيما لا يمكن إصلاحه، في المنفى، وكل ما يفتقر إليه. ما يحدث هنا، في مدرجات «لارين دو لوتس»[20]، يحدث في كل دقيقة من الوجود، المتعة، اللعب، ونعمة الحركة، الطفولة القريبة جدًا، الحرية. بالنسبة لرزا، هذه الدقائق موجودة، وسوف تستمر في الوجود.. في يوم من الأيام، سيكون بمقدوره أن يضع رأسه على الكتف الناعم لهذه الدقائق.

لم تتوقف حياة رزا مع الحرب. ولد في بلاد وهي في حالة حرب. لم تتوقف حياته يوم فر مع عائلته إلى إيران. لم تتوقف حياته عندما فقد أمه وإخوته.. لم تتوقف حياته عندما وجد نفسه وحيدًا، وعبر أوروبا تحت شاحنة، حياته لن تتوقف، حياته تتجسد في أن يبقى على قيد الحياة.. يلعب رزا كرة القدم في الدائرة الخامسة لباريس، والحياة أمامه.

أنا في غرفتي أكتب.. أسمع رزا وماريوس ونوح يتحدثان في الصالون.. يصنعون مجسمات «الأوريغامي» الورقية مثل: أكاليل،

---

(20) هي مدينة جالو رومانية تقع في الموقع الحالي للبنك الأيسر من باريس.

أزهـار الزنبـق وإوز. يـا لهـا مـن فرحـة! أن تشـعر بوجودهـم هنـا، قريبيـن جـدًا ودافئيـن وآمنيـن. عندمـا انضممـت إليهـم، وجـدت رؤوسـهم الثلاثـة عاكفـة علـى تشـييد لعبـة البـوزل[21]. هنـاك المئـات مـن القطـع المتبقيـة كلهـا تقريبًـا زرقـاء، ومتطابقـة، تصيـب بالجنـون. يمثـل البـوزل خريطـة العالـم، حيـث القـارات ضائعـة بيـن شسـاعة المحيطـات، أمـا البلـدان؛ فقـد حـددت بواسـطة خـط أسـود.

كمـا يقـال فـي المدرسـة: الخريطـة خرسـاء، بـل الخريطـة صامتـة مثـل سـمكة شـبوط، إنهـا تمـرر العنـف فـي صمـت، إنهـا لا تقـول أي شـيء عـن أولئـك الذيـن يفـرون مـن بلدانهـم.. لا شـيء عـن الحـدود المنيعـة.. لا شـيء عـن القـوارب التـي تغـرق.

أفكـر فـي الأجسـام البشـرية التـي يبتلعهـا البحـر. هـل نحلـم بالموتـى ليـلاً؟ نحـن الوحشَـين شـاربيديس وسـيكالا[22].

---

(21) لعبة تركيبية وهي عبارة عن أحجية من الصور المقطعة، يجدر باللاعب أن يركبها وفق نموذج بصري.. تساعد اللعبة على التركيز والتحلي بالصبر.

(22) التواجد بين شيلا وتشريبديس هو تعبير مستمد من الأساطير اليونانية، وهذا يعني «الاضطرار إلى الاختيار بين شرّين». العديد من التعابير الأخرى، مثل: «على قرون المعضلة»، «بين الشيطان والبحر الأزرق العميق»، «بين الصخرة والمكان الصعب» تعبر عن معانٍ مماثلة.

لا أملك سوى الشعر[23]

اعتدت أن أطردهم

بأسناني

ولكن أسناني انكسرت..

وأن أطردهم بالعصي

وأسناني المتبقية

وأن أطردهم أثناء رقصي

وأنا ألعن بحارهم وأمهاتهم

وأنا ألعن مخاضهن

الذي يدمي أراضيهن

اعتدت طردهم

من القوارب التي يرمونها في وجوهنا

القوارب المثقوبة

المليئة بالقتلى والملح

القوارب الهشة مثل اللعب

قوارب وهمية تحت الشمس

سراب المنارات والإخوة

اعتدت أن أغرقهم

في نومي.

(23) تعكس القصيدة صوت أوروبا التي غدت معادية لإقامة المهاجرين.

الأيام السعيدة

20 مارس

مـر يومـان علـى إصابـة رزا بنزلـة بـرد.. السـعال يمـزق صـدره ليـلاً.. قلـت لـه منـذ يوميـن أن زيـارة الطبيـب ضروريـة، وقـال لـي إنـه لـن يجـدي نفعًـا، لكننـي ألححـت عليـه، فوعدنـي أن يشـعر بتحسـن شيئًا فشيئًا، إنـه يسعل أكثـر وأكثـر قـوة، أشـعر أنـه خائـف مـن شـيء مـا.

هـذا الصبـاح، وافـق أخيـرًا علـى زيـارة الطبيـب وهـو يصطلـي بالحمـى. فـي الطريـق، أطلعنـي علـى جـواز سـفره المكتـوب بأحـرف ذهبيـة: وثيقـة سـفر للاجئيـن. فـي الجـزء العلـوي مـن كل صفحـة يمكنـك أن تقـرأ: اتفاقيـة جنيـف لعـام 1951. هـذه الكلمـات، يكفـي أن أقرأهـا، ليقشـعر بدنـي. إنهـا مثـل قـراءة القصـائد الأكثـر شـفافية، مثـل قـراءة هنـري ميشـو(24) الـذي يكتـب لحبيبتـه: «يقـول أحدهـم، شـخص لـم يعـد متعبًـا، شـخص لا يسـتمع أبـدًا، شـخص لا يحتـاج إلـى مسـاعدة أبـدًا، شـخص لـم يعـد متوتـرًا، شـخص لا ينتظـر أبـدًا.. يصـرخ أحدهـم، والآخـر حاجـز. شـخص يتدحـرج، ينـام، يخيـط، هـل

(24) Henri Michaux, « La Ralentie » in Lointain Intérieur, Éditions Gallimard, 1963.

هو أنت، يا لوريلو؟ «يخبرني رزا أن جواز سفره ستنتهي صلاحيته في سبتمبر، وأنه لا يعرف طريقة تجديده. أقول له: حافظ على وثائقك.. لا تفقدهم، احرص على وثائقك كما تحرص على نار لا يجب أن تنطفئ أبدًا.

يسألني رزا إذا كان سيتعين عليه أن يدفع مالاً.

- لن تضطر لدفع أي شيء؛ لديك بطاقة التأمين الصحي.

رزا غير متأكد من أنهم سيعترفون ببطاقته.

- نعم، سوف يأخذونها، وأعدك بذلك، هذا هو القانون.

يقول رزا إنه لا يزال يتعين عليه دفع ثمن الدواء.

- دانيال، لا تقلق، الأدوية ستكون مجانية.

تحمل الطبيبة بطاقة التأمين الصحي الخاصة برزا في يدها. وهي تقول: «هناك خطأ». لا يمكن أن يكون مولودًا عام 95»

- نعم، عمره 22 عامًا. حياة مثل التي أمضاها هاربًا، تجعلك تشيخ بسرعة.

تفحصته الطبيبه وسألته إذا كان يدخن السجائر. ينظر إليّ قبل الإجابة، كما لو كان يخشى ألا يقدم الإجابة المطلوبة. وبنبرة مترددة، تكاد تكون استفهامًا، قال مخاطرًا: «التدخين؟ نعم»

«أحقًا! يجب أن تتوقف! هتفت المرأة مستغربة: يجب أن تتوقف الآن!»

أنا أحب هذه الطريقة السلطوية والسخيفة للتحذير من

الخطر، وأحب التعبير الذي ارتسم على وجه الطبيبة، وتحذيرها وصرامتها. لا تلقي بالكلام على عواهنه.. إنها لا تريده أن يمرض؛ صحة رزا مهمة. عندما يبدأ أحدهم بالاهتمام بك، فأنت لم تعد وحيدًا.

بدا رزا في الشارع مرتاحًا جدًا، شفي تقريبًا.

- كما ترى يا دانيال، لم ندفع أي شيء.

- لم ندفع أي شيء! يؤكد رزا.

لم أستطع أن أمنع نفسي من تكرارها.. طالما استمرت فرنسا بهذا الوضع.. طالما استمرت تقاوم. بلى، لم يدفع رزا أي شيء، أشعر بالفخر كما لو أنني شخصيًا كتبت مشروع الضمان الاجتماعي في برنامج المجلس الوطني للمقاومة. في نسخته الأولى، كان يسمى هذا المشروع بـ «الأيام السعيدة»، لأن الشعور بالقلق من أجل الجميع ومن أجل الفرد هو السعادة بعينها.

21 مارس

في مترو باريس، اشترى رزا حقيبة مليئة بثلاثين زوجًا من الجوارب ذات ألوان مشعة خضراء وصفراء، مزينة بشعار كأس العالم فيفا 2014 في البرازيل. قال إنه لاحظ أن كل جواربي وكل جوارب فابريس مثقوبة، لهذا قرر أن يهدينا أربعة أزواج لكلينا.

* * *

كنا في المصعد، حينما سألني رزا إذا كان بإمكاني إعطاؤه نقودًا؛ لم يتبق بحوزته سوى خمسة وثلاثين.

-خمسة وثلاثون سنتيمًا أم خمسة وثلاثون يورو؟ سأله نوح.

- سنتيمًا، أجاب رزا.

- إذن، هناك مشكلة، حسم نوح. لا يمكنك شراء أي شيء بـ 35 سنتًا.

نوح محق، هناك مشكلة. لكن ما هذه المشكلة؟ من جانب -جانب معقول وضيق- قلت لنفسي أنني لن أتمكن من منح رزا 50 يورو في كل مرة يصبح فيها حسابه البنكي فارغًا، يجب أن يتعلم كيف يعيش براتبه الوحيد.. الراتب فقط، تحسبًا لليوم الذي يجب أن يدفع إيجاره، ومن جانب آخر -جانب هائل ومبجل- أنا معجبة بطريقته في إنفاق أمواله على الآخرين، أولئك الذين ظلوا تحت جسر المترو، المجموعة التي تعيش في الأكثر سوءًا منه، وفي ذلك عزاء له، وهو الذي تمكن من البقاء على قيد الحياة عشر سنوات مديدة، في بلدان لم يتحدث لغتها. في فترة لم يكد يتجاوز فيها سن الطفولة. ومع ذلك، كان قادرًا على ملء بطنه كل يوم، والعثور، كل ليلة، على ركن تحت سقف أو خيمة. مثل هذا الشخص لا يضع في اعتباره أمور التدبير والمحاسبة. سيدفع إيجاره عندما يملك مسكنًا له، وعقد إيجار باسمه.. ولا ريب أنه سيجعل الآخرين يستفيدون منه.

سأذهب إلى جنوب فرنسا، لألتقي القراء وأتحدث معهم عن

روايتي الأخيرة. بينما أمد يدي لأصافح رزا وأودعه، تقدم نحوي وقبلني على وجنتي. هذه هي المرة الأولى التي نقدم فيها على هذه الإيماءة الطقسية. أصابت عظمة رزا عظمة وجنتي.. كانت الحركة مفاجئة جدًا، والتلامس قاس مثل حافة الحجر. ليس من السهل أن تنجح في القيام بهذه التحية اللطيفة.

22 مارس

صنع ماريوس سوارًا من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ، وأهداه لرزا ملفوفًا بورق تغليف هدايا عيد الميلاد. ينظر بعيدًا، وهو يهز منكبيه بمرح، «جيد! إنه مجرد سوار! لن نجعل منها قصة...» وها هي ابتسامة رزا تتجلى! ذات يوم، يجب أن نجد اسمًا لتلك الابتسامة.

* * *

اليوم، هو عيد النوروز، رأس السنة الفارسية الجديدة وعيد الربيع. عندما عاد إلى المنزل، كان رزا مخمورًا وفرحًا. كان سيستند على يده، يضعها بلباقة على جدار الصالون، لكي لا يفقد توازنه. أخبرني أنه قضى اليوم مع الإيرانيين وأنهم رقصوا وغنوا. كانت هناك زهور في كل مكان.. الجميع أحضر الطعام والشراب. عندما يكون رزا ثملاً، يكون مظهره هزليًا لذلك المراهق الذي يكتم ضحكة مجنونة خشية أن يوبخ. أرى كيف أنه يركز كي يقف بشكل مستقيم، موضحًا كل كلمة ينطقها بشكل

مبالغ فيه، وهو يشرح بإيماءات من يديه كل ما هو غير مفهوم.

يكرر الجملة نفسها أربع أو خمس مرات، وعيناه تشعان قليلاً بضوء مجنون. يقول بلا كلل أو ملل: «من المهم للغاية، عيد الربيع! في ثقافتي، مهم جدًا!» يلفظ الكلمات باللغة الفارسية. كانت فرحته حقيقية لدرجة أننا يمكننا لمسها، إنه بحاجة لسماع اللغة الفارسية وهي تُتحدث كما لو أنها بيته. يسمع لغته ويعثر أخيرًا على ملجأ.

عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، قضيت أنا وصديقتي بولين الصيف في أمريكا الجنوبية، في نهاية عامنا الأول من الدراسة الجامعية. لا هي ولا أنا كنا نتحدث كلمة واحدة بالإسبانية. بعد عدة أسابيع من السفر في البيرو، أتذكر حالة النشوة والإثارة التي شعرنا بها ونحن ندفع باب مركز التحالف الفرنسي في مدينة لاباز. كم كان عذبًا سماع الفرنسية! ويا له من ارتياح! كما لو أنك دخلت حمامًا دافئًا ومطمئنًا للغتك الأم. كان هناك تلفزيون مُشغّل في زاوية، ضبط على قناة (ت ف 5). أخذنا نشرب كلام المقدم ارتشافًا. بغض النظر عما قاله، كنا نفهم ما يقوله. كنا أختيه الصغيرتين. قررنا البقاء لتناول العشاء في التحالف الفرنسي، معَ أن الأسعار كانت أعلى بكثير من ميزانيتنا. على قائمة الطعام، كان هناك «بورغينيون[25] بلحم اللاما». كنا في بوليفيا وكنا نشعر بأننا في بلدنا.

---

(25) مرق يعد من لحم البقر وهو من المطبخ الفرنسي الشعبي، يعود أصله إلى منطقة البورغون. يطبخ مع الفطر والبصل اللحم المقدد وتضاف إليه الخضروات مثل البطاطا والجزر وغيرها.

ماذا لو؟

أردنـا أن نشـك في ذلـك، لكننـا نعـرف أن جسـدينا مـا زالا يوجـدان فـي بلدهمـا. لـم ننجـح فـي التواصـل باللغـة الفرنسـية ومعهـا البسـاطة القويـة للفهـم والتفاهـم، ولكننـي أتحـدث عـن رحلـة، تلـك الرحلـة السـحرية التـي أوصلتنـا إلـى سـفح بـركان باريناكوتـا الـذي يعلـو علـى ارتفـاع سـتة آلاف وثلاثمئـة وثمانيـة وأربعيـن متـرًا. ووضعتنـا أمـام انعكاسـه البديـع فـوق ميـاه بحيـرة شـونغارا التـي ترعـى حولهـا حيوانـات الفيكونيـا[26] الرشـيقة. هـذه الرحلـة هـي سـفر مرغـوب وليـس منفـى، واجتثاثًـا بالقـوة. كيـف يمكننـا العيـش فـي مـكان لا ينبغـي لنـا أن نعيـش فيـه؟ حيـث الجسـد لا يشـعر بأنـه فـي وطنـه؟ حيـث اللغـة الجديـدة التـي تنبـذك؟ هـل يجـب أن نتخلـى عـن لغتنـا الأصليـة، والمناظـر الطبيعيـة لمرحلـة الطفولـة، والسـماح لبلـد جديـد بالنمـو فـي داخلنـا - البلـد المضيـف، والـذي علـى الأغلـب لـن يرحـب بنـا؟ بالنسـبة لـي، أشـعر بأننـي لـن أسـتطيع العيـش فـي أي مـكان دون التعـرض للغـزو، ليـس بسـبب ذكريـات البلـد

---

(26) الفِكّونة أو الفيكونيا: هي جنس من الحيوانات الثدية، تتبع الفصيلة الجمليات من رتبة مزدوجات الأصابع. تعيش في جبال أمريكا الجنوبية، وهو من أقرباء اللاما. يعدّ من الحيوانات المهمة بالنسبة للسكان المحلين بسبب جودة صوفه.

الذي أفتقده، ولكن بسبب الراهن الحميمي والحصين للغته.. كي أفهم بالنسبة لرزا مدى أهمية لغة طفولته، والمكانة التي يحتلها بلده، يجب، كما يقولون، أن أضع نفسي مكانه، لكن هذا الأمر، تحديدًا، شيء مستحيل. وللتمكن من ذلك، يجب أن أعرف معنى الحرب، أو الهروب، أو الملاحقة، أو مخيمات اللاجئين، أو ذلك الرعب الدائم، أو ذلك الجوع، أو ذلك البرد القارس. يجب أن أشعر سلفًا، بما يحدثه ذلك كله في البطن والقلب. وكيف لا يتمكن المرء من الاختباء كي لا يُطرد ويرمى به إلى هوامش العالم حيث الحياة ممكنة.

وأنا أكتب هذه الكلمات، أفكر في صباحات رزا الأولى في المنزل. وصمته المنافي للشرط الإنساني، وطريقته في التحرُّك بلا ضوضاء، ومكوثه في الظلام، واستعماله المياه بصمت، ووجوده المنعدم تقريبًا. ماذا يحدث، في أعماق الذات، عندما يفقد الشخص لغته وعائلته، ونقضي سحابات عمرنا المجنون نبحث عن مكان، حتى وإن كان ضيقًا، وحتى وإن كان أصمَّ، حيث يمكن أن يعيد الإنسان غرس حياته من جديد؟

عندما كنت ثريًا

23 مارس

جاء ماريوس راكضًا إلى الصالون، متنكرًا في زي يوليوس قيصر، ذاك اليوليوس قيصر الذي أعاد نوح إبداعه مضيفًا إليه عقدًا من اللؤلؤ، ونظارات دائرية ذات عدسات وردية غريبة، وشعرًا مستعارًا طويلاً فضيًا وأشقر. يقول رزا إنه يذكره بفيلم، ومن دون أن أفهم كلمة عن القصة التي يحاول تلخيصها. لم يستطع تذكر العنوان، فاقترحت عليه بعض العناوين: بريسيلا المجنونة والصحراء. السيدة دوبتفاير. لا، ليس هذين. رزا يحاكي معركة. وبعد هنيهة أدركت بأعجوبة أنه يحدثني عن «غلادياتور: المصارع»، فيلم ريدلي سكوت. يشرح لي أنه شاهد الفيلم في تركيا، حيث كان يقضي نهاراته ولياليه في مشاهدة الأفلام على شاشة الحاسوب.

كالمعتاد مع رزا، فإني أستطيع أن أطل على حياته من خلال مظهر ثقب حكاية صغيرة من حكاياته؛ لذلك أسأله بلطف بعض الأسئلة، متجنبة تلك التي قد تؤدي فجأة إلى إنهاء حكايته، كلمة

واحدة تكفي لكي يصمت رزا تمامًا عن الكلام وفي الآن نفسه يكتسي وجهه بقناع معتم وعنيد. أحوم وأدور حول لغز أوديسته. اكتشفت أنه قضى زهاء عام في تركيا.. كان في الثالثة عشرة من عمره.. عاش في شقة يقيم فيها مجموعة من الأفغان.. كان رزا لا يخرج إلى الشارع أبدًا، حتى لا يخاطر بنفسه. كان يخشى الشرطة. الخوف من الشرطة المترسخ والأبدي، والذي يزرع الرعب الدائم، مثل الخوف الغريزي من الثعبان. هذا الخوف لم يغادره.. أنا أعرف ذلك، أشعر به وأراه. عندما نسير في الحي، فأنا الوحيدة التي تتجول فيه، أما رزا فهو مجرد طيف عابر للمكان، إلى مكان ما. قال إنه يفضل التنقل السريع، لأنه يشعر أن الشرطة تتعقبه، لهذا يترقبها بعينيه. حالما نلتقي رجلاً أو امرأة بالزي الرسمي، حتى لو كان حارسًا في حديقة النباتات، فإن رزا يتشنّج ويبدو أن ظهره يتقلص حول كرة سوداء مثبتة في أعلى عموده الفقري.. أمس، التقينا دورية عسكرية في شارع موفتار.. شعرت أن جسد رزا قد تغير شكله على الفور تمامًا كالأخطبوط الذي يغير مظهره عند شعوره بدنوّ الخطر. قلت له: «يا دانيال، أنت تملك بطاقة إقامة. لا شيء يمكن أن يحدث لك! -ربما كنت أحاول أن أطمئن نفسي- حتى وإن كانت وثائقك غير مكتملة؟ وحتى وإن تغير القانون؟ وحتى وإن انتخبت مارين لوبين في شهر مايو رئيسًا لفرنسا؟

* * *

يهيئ رزا العشاء. الخضروات مطبوخة جيدًا، ولذيذة، وغارقة في قليل من الزيت. وبينما كان يقطع الخبز بهذه الحركة الفريدة المتمثلة في تمزيق الخبز ببطء، كما لو كان يريد تجنب جرحه، يخبرنا رزا أنه لم يكن يذهب إلى المدرسة عندما كان طفلاً. يهتف نوح: «أنت محظوظ جدًّا!» يفسر رزا أنه لا يعرف جيدًا كتابة لغته الأصلية، الداري، لأنه درس مدة عامين أو ثلاثة أعوام فقط. ضمنيًّا فهمت أن الزوجين اللذين كانا والديه -المسلم الشيعي والمسيحية- كانا منبوذين من كل أشكال الحياة الاجتماعية. عندما يذكر طفولته في مقاطعة لوغار التي لا تبعد كثيرًا عن كابول، يستخدم رزا هذا التعبير المثير: «عندما كنت ثريًّا».

29 مارس

أنا ورزا في المنزل وحدنا. فابريس في العمل، وطفلاي في المدرسة. أكتب قصيدة في ركني المفضل: رابضة على كرسي، كضفدعة مستعدة للقفز إلى أحشاء الحاسوب الحالم. يستمع رزا إلى الموسيقى في غرفته: امرأة تغني بالفارسية (حسنًا، أعتقد أنها فارسية، لكنني لا أعرف). يفتح بابه، ويتقدم نحوي، ثم يسألني إذا كنت أحب موسيقاه. أقول له: إنها جميلة جدًّا.. إنها جميلة. لم يسألني إذا كانت الموسيقى تزعجني في الكتابة أم لا؟ هذه الموسيقى هي مكمل للجمال، لا يمكنها أن تزعج أي شخص.. إنها تداعب الجسد دون أن تحدث ضجة.

الأشياء الصغيرة العظيمة

8 أبريل

يقضي ماريوس ونوح عطلتهما عند والديّ في أنتيب، بينما أمضيت أنا وفابريس الأسبوع في كورسيكا. مثل كل عام، كنت أقتل قنافذ البحر وأعبر عن جرمي في قصائدي:

بفضل عين الأخطبوط السحرية

لا آكل الحيوانات،

لكن عند الظهيرة

جاثية على الشاطئ

بحجر

قتلت قنافذ البحر

بقوة ظالمة..

الأرجوانية، البنية

الجميلة، والمتألقة!

حطمت أعشاشًا من الإبر..

فتشت الكتل

وأغشية مقززة

اشمئزازي يبهجني

مستلقية على لساني
نجوم أليود
فأتذكر صورة
شطيرة الطفولة
المغمورة بزيدة كثيرة
والمزخرفة بلون اللهب
ولزوجة صفار قنفذ البحر
حسنًا. لم أعد، بعد الآن

أحصي عدد قتلاي.

بقي رزا وحده في باريس. أتصور ما يمكن أن يجده إذا بحثَ قليلاً وفتح أدراج غرفتنا: رسومات النساء المكشوفات اللائي منعت تعليقها على الحائط. وطالما أنه لن يجدها، أو بالأحرى، ربما يجدها جميلة. أحب أن أعرف شعوره هناك، في منزلنا، أقصد في منزله. وقد أصبح أخيرًا حرًّا، ليحدث الضوضاء كيفما شاء. أقول لفابريس، مؤكدة أن رزا سيستغل غيابنا كي ينظم حفلات رائعة، تعجّ بالمشروبات، والسهر حتى الساعة الخامسة صباحًا برفقة أصدقائه الأفغان والإيرانيين. عندما نعود، ستكون الشقة في حالة دمار. سيختفي رزا مع دفاتر الشيكات والمجوهرات والتمثال القديم لديميتر. في الحقيقة، إن ثقتنا به لا حدود لها..

الثقة اسم يسمي الشخص الذي يرثها. ولا يمكن أن تنفصل عنه، وإذا حدث وخان هذه الثقة، فسيُنسى اسمه تمامًا، ويضيع في الكلمة وفي منزل ولادته، وسيتخلى عن والديه وأسلافه.

12 أبريل

هاتفني رزا. عندما رأيت اسمه يظهر على الشاشة، اعتقدت على الفور أن هناك فيضانًا في الشقة. وعلاوة على ذلك، كان هناك تسرب فعلاً، قبل سفرنا إلى كورسيكا. ليس ثمة أي فيضان.. كان رزا يتصل بي، ليخبرني أنه عاد لتوه من العمل، وبما أنه كان يفكر فينا؛ فقد قرر الاتصال. صوت رزا تتخلله رعشة وصلاة. أخبرته أننا هنا محاطون بورود كثيرة. أعرف أنه يحبها. عندما كنا نتنزه في باريس، كان يسألني دائمًا عن أسمائها. وهو يكرر هذه الأسماء ورائي. كان يشعر ببهجة خاصة أثناء نطق أسماء الزهور. يسألني رزا: «ماذا تفعلين؟ أخبره أننا نذهب إلى الشاطئ وأننا نسير كثيرًا في الجبال. بنبرة سعيدة يقول: «الجبل!» هذه الكلمة لها تأثير سحري على رزا. كل جبل هو جبل طفولته. يسألني أسئلة، ويخبرني عن يومه في العمل، بصوت مبتهج يمططه مثل قطة تتمدد تحت أشعة الشمس، لا ينوي التحرك من مكانه أو تعليق الهاتف.

15 أبريل

خلال أسبوعنا في كورسيكا، أتى رزا على قارورتين من زيت عباد الشمس، ومطحنة كاملة من الفلفل الأسود ومئة وخمسين غرامًا من الملح. في المرة الأولى التي رأيته فيها يطهو، أتذكر أني أمسكت يده أثناء إفراغه ملعقة كبيرة من الملح في صلصة الطماطم المليئة بالباذنجان.. «انتبه يا رزا! إنه ليس سكرًا!» قلت له بنبرة فجائعية، وآسفة، لأنه كان بصدد إفساد طبخه. أجابني: «نعم، إنه ملح! أنا أريد الكثير من الملح!» أفرغ الملعقة في الطنجرة، وخلط كل شيء. تذوقه، ثم قرّر أن شيئًا ما ينقصه. عندئذ، أضاف أمام عينيّ المصدومتين، ملعقة كاملة من الملح.

رزا في الأدغال

17 أبريل

هذه الليلة لم يعد رزا إلى المنزل.

ماذا يفعل؟

إنه شاطر، وقوي، ويحمل وثائقه.

ما من سبب يدعوني للقلق.

لكنني قلقة.

18 أبريل

لم أر رزا منذ يومين وليلتين. أنا وحدي في المنزل. ماريوس ونوح ما زالا في أنتيب، وما زال فابريس في الجبال. بدأ بالي ينشغل، وماذا لو تعرض لتفتيش ولم تكن وثائقه معه؟ لماذا لم يهاتفني؟ وفي الوقت نفسه، لماذا سيهاتفني؟ أخبرته دائمًا أنه ما من داع ليخبرني إلى أين يذهب أو متى سيعود، لكنه غاب منذ يومين وليلتين، هذه مدة طويلة.

19 أبريل

عاد رزا أخيرًا إلى المنزل. حاولت ألا أظهر قلقي وغضبي، لكن أعتقد أني فشلت في ذلك، لأنه ما إن شاهد ملامح وجهي حتى انهار وجه رزا واعتذر ألف مرة، لأنه لم يخبرني أنه سيقضي ثلاثة أيام مع أصدقاء إيرانيين في الأدغال.

- قل في الغابة، يا دانيال.. هل تعلم أن الأدغال توجد، بالأحرى، في المناطق المدارية.

- لا! لا ليست الغابة، بل الأدغال.

- هل تقصد... مخيمَ اللاجئين، حيث الخيام؟

- لا، لا أقصد اللاجئين، بل الأشجار.

- نعم، إذن في الغابة.

- لا، ليس الغابة.. إنها الأدغال.

في بعض الأحيان، مهما فعلنا، ففي الأخير لن نفهم بعضنا بعضًا.

الكوخ

20 أبريل

عندما يقطع رزا الخيار إلى شرائح، يحتفظ برؤوس الخيار. يخبرني أنه تقليد في موطنه.. يلصق المرء الطرف الرطب للخيار على جبينه، فيتسرب شيء مفيد وجديد إلى الجلد. يملك طريقة حازمة وودودة لدعوتي إلى مراقبة هذه الطقوس. أخبرني أن والدته كانت تفعل ذلك دائمًا. لا يمكننا أن نرفض. أثارت هذه القطعة الصغيرة من الخيارانتباهي؛ فقد شعرت بنقطة طاقة حيث ألصقتها بجلدي. تمتد عقدة الاهتزاز إلى دوائر متحدة المركز، لتسترخي عند الصدغين. آمل أن يضع أولئك الذين سيقرؤون هذه الأسطر رأس الخيار وسط جبين أخواتهم أو أبنائهم، وهكذا سينتقل هذا التقليد العزيز على رزا من جسد إلى جسد ويستمر إلى الأبد.

21 أبريل

كل مساء، يجلب فابريس من المخبزة خبزًا فرنسيًا لذيذًا خرج مباشرة من الفرن. عندما يفتح الباب، وقبل أن يقول مساء الخير، يصيح نوح وماريوس بصوت واحد: «أبي، هل أحضرت الخبز؟

هـل يمكننـا الحصـول علـى بعـض منـه؟» منـذ ثلاثـة أيـام، بـدأ رزا يسـبق فابريـس ويشـتري بنفسـه الخبـز الفرنسـي للعشـاء. يشـتريه مـن السـوبر ماركت. خبـز مـن دون مـذاق. هـذا الخبـز إهانـة للخبـز الحقيقـي. وبأقصـى قـدر ممكـن مـن اللباقـة، أشـرح لـرزا أنـه مـن الأفضـل شـراء الخبـز مـن الحـرفيـين الحقيقيـين، وإلا فـإن الخبازيـن سيصبحون عاطليـن عـن العمـل قريبًا. فـي الحقيقـة، كنـت أعبّـر عـن خوفـي الوحيـد أن يسـتمر رزا بعنـاده فـي شـراء الرغيـف الفرنسـي مـن متجـر كارفـور، وبذلـك سـنحرم مـن فرحتنـا اليوميـة المقرمشـة.

22 أبريل

يحمـل رزا خزانـة خشـبية كبيـرة بيـن ذراعيـه. يضعهـا وسـط الصالـون ويقـول لـي، لاهثًـا: «مـن أجـل كتبـك!» هـذه الكلمـات الثـلاث اندفعـت إلـى قلبـي وضربتـه بشـدة؛ لقـد تأثـرت كثيـرًا لدرجـة أننـي كـررت ببلاهـة: «مـن أجـل كتبـي؟ هـذه خزانـة مـن أجـل كتبـي؟» لاحـظ رزا أن كتبـي لـم تعـد تسـعها أرفـف المكتبـات. بـل صـارت فـي كل مـكان، علـى الأرض، علـى طـول الجـدران، تحـت الطـاولات، وتحـت الكراسـي، فـوق الأريكـة.. عددهـا لا يتوقـف أبـدًا عـن التزايـد. كل أسـبوع، خمسـة أو عشـرة كتـب جديـدة تحـط الرحـال فـي المنـزل وترتقـي إلـى قمـة الأكـوام التـي تنمـو مثـل الأعشـاب المتسـلقة. وجـد رزا خزانـة علـى الرصيـف، فـي الطـرف الآخـر مـن باريـس، وأحضرهـا مشـيًا علـى الأقـدام. وصعـد بهـا الـدرج إلـى الطابـق الخامـس، لأنـه

لم يستطع إدخالها إلى المصعد.

إنها هشة وجميلة جدًا، بألواحها الرقيقة وعيدانها الخشبية الناصعة. صاح ماريوس ونوح: «إنه كوخ!» يعلو الخزانة سقف حقيقي حاد. أتساءل كيف سأضع الكتب داخل هذا الأثاث. هناك مساحة كبيرة فارغة على جانب واحد لتعليق الملابس. وعلى الجانب الآخر، أربعة أرفف ليس لها حواف؛ مما يمنع وضع الكتب عموديًا. إنه ليس الأثاث المناسب، لكنه الأكثر جمالاً. هذه الخزانة تهمس لي بأن الكتب يمكن أن تعيش في كل مكان، في الثلاجة، في الساعة الحائطية، في الخزانة، شريطة أن يكون لديها ملجأ، لها وحدها، مثل كوخ. اعتقدت دائمًا أن الأكواخ هي أجمل مكان في العالم. طوال طفولتي، حلمت بالأكواخ وقد ظلت تلازم قصائدي.

كوخ كوخ

كوخكوخكوخ

كوخكوخكوخ

كوخكوخكوخكوخ

كوخكوخكوخكوخ

كوخكوخكوخكوخ

كوخ كوخ كوخ

كوخ كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

كوخ

إذا استسلمت لصوتي

فسأكتب كلمة كوخ

طوال اليوم

* * *

كنت دائمًا

أعدّ تسريحة شعري المنفوش

مثل كوخ

* * *

لا توجد كلمة

ليس لها هذا الطعم المدبوغ بالفرح

جسدها المملح بأشعة الشمس

سأكتب كوخًا إلى نهاية الصبر

إلى أن تطفح رؤى القرود

إلى أن أسحب من قرطي سُلّم يعقوب

سأندس داخل الكوخ، وأنام

[سأمتص عظامه الخشبية وأحترق مع الشظايا والصمت،

[لن أملك عنوانًا، سأعيش في كل مكان،

[مغامرة ومراقبة

سأنبعث معلقة بين الأشجار.

* * *

لماذا سنتناسخ إذن إن لم يحدث ذلك داخل الكوخ؟

ابتسامة رزا

23 أبريل

أنا ورزا نطهو جنبًا إلى جنب. في الوقت الحالي، أنا لا أعرف ما بعده. قطّع الآن خمسة عشر فصًا من الثوم.. خمسة عشر! لا أستطيع أن أصدق عينيّ. فجأة يلتفت نحوي ويأخذ نفسًا عميقًا ويقول: معذرة. يتأسف لأنه مكث أمس في غرفته طوال الليل.. يعتذر لأنه لم يقل لنا ليلة سعيدة؛ كان يشعر بتعب شديد.. قلت له: ولكن يا دانيال، أنت في بيتك.. إذا كنت ترغب في البقاء في غرفتك، لتحظى بالهدوء والراحة، افعل ما تريد. وإذا كنت ترغب في دعوة شخص ما للنوم أو شرب الشاي، فأنت تدعو من تريد.. كان صوتي يرتجف. قلت له إنني في الوقت الحالي مرهقة أيضًا، لأن أبي مريض وأنا قلقة عليه، ودون أن أعي كيف تفوهت بهذه الكلمات، سألته إذا كانت لديه أخبار عن أمه. لم أجرؤ أبدًا على فعل ذلك. منذ شهور، وهذا السؤال يدور في بالي، ومن حولنا، وفي كل مكان. تنفس الصعداء وأجاب ببساطة: «لا». وهذه هي المرة الأولى، على الرغم من تحدثنا عن أسرته، فإن وجهه لم يتوارَ خلف قناع قاس وبارد. سألته إذا كان يعرف أين هي. ساد الصمت، حتى خشيت أن يقول لي إنها ماتت. بدا الأمر كما لو

أنني سمعته بالفعل ينطق الجملة الحتمية، لكنني كنت مخطئة؛ فقد أخبرني أنه لا يملك أخبارًا عنها، وأنها قد تكون في إيران. سألته منذ متى لم يرها. «منذ زمن طويل جدًا. كانت آخر مرة رأيتها، عندما كنت في إيران؟ عندما كنت في الثانية عشرة؟»

أردت أن أسأله سؤالاً آخر، كي لا أقطع الخيط الرفيع الذي يربطنا بأمه:

- كم عمر أمك؟

- سبعة وأربعون عامًا.

أقول: الأمر صعب جدًا.

يقول رزا: نعم، إنه صعب جدًا.

ثم لا نقول أي شيء بعد ذلك.

نعود إلى خضرواتنا. نقشرها ونقطعها. وكأنها بلسم على الجلد. أيدينا قريبة جدًا، من رقصات التوائم. لا شيء يمكن أن يفسد هذه الحركات، لا يمكن لأحد أن يسلبها معناها وعزمها. هناك صوت شفرات تقطع وتقشّر. هذه الضوضاء الصغيرة هي التي تجمعنا.

24 أبريل

ماذا نسمى هذه الابتسامة؟ هذه الابتسامة المذهلة التي تبدو وكأنها بلا نهاية، والتي تكشف كل لحظة عن أسنان جديدة، زارعة فرحًا طفوليًا في خدّي رزا وعينيه.. أريد أن أعطيها اسمًا. إنها ابتسامة رزا. عندما خرج رزا من غرفته ولاحظ أنني رتبت كتبي المبعثرة كلها داخل الخزانة، أضاءت ابتسامته الصالون كله.

علقت فوق القضيب المصمم لتعليق الملابس، أقنعة مجلوبة من البندقية وقلادة الياسمين. من ذاكرة الكتب والمكتبات التي أعرفها، لم نر أبدًا مكتبة - خزانة، تشبهها.

نحن لاجؤون آخرون

25 أبريل

يخبرني رزا أنه بعد مغادرته العمل، يذهب إلى متحف سيرنوشي. يجب أن نتخيل فعلاً كيف يقضي رزا يومه. فترة ست ساعات، ينظّف أرضية الحضانة البلدية والمراحيض والمهاجع والممرات وغرفة عربات الأطفال ومكان القمامة وقاعة الطعام ومكاتب الإدارة، ثم يمضي ساعتين في متحف سيرنوشي مفتتنًا بخبب خيول سيشوان، وتمثال بوديساتفا أفالوكيتسافارا الجالس في وضعية استرخاء وبوذا القادم من منطقة ميغورو. يجلس رزا إلى جواري في الصالون، ويخبرني أن هنري سيرنوشي، جامع الأعمال الفنية العظيم، كان لاجئًا. قرأ المعلومة على حائط المتحف، فقد لجأ من إيطاليا إلى فرنسا.

عندما يتحدث عن سيرنوشي، يومض ضوء غريب في عينيه، لكني أعلم أنه يتحدث عن نفسه، وعن أمله، وعن حياته الممكنة، وعن المستقبل، وعن ثرائه المثير. عندما أسأل رزا كيف كان يومه في العمل، في أغلب الأحيان يقول: «حسنًا، لكن هذا غير مثير للاهتمام». شغف رزا بتمثال بوذا الضخم القادم من ميغورو. يصف لي ما شاهده عندما كان في السادسة من عمره، حينما

دمّر الطالبان بوذا الألفي في باميان، حدث ذلك على بعد مئتي كيلومتر من منزله. قال لي رزا وهو يجزء المقاطع الصوتية مثل الأحجار الكريمة: «إنه عظيم». لم أسمع منه أبدًا استخدام كلمة «عظيم» استحضر الكلمة للدلالة على العظمة والروعة.

* * *

أكتب على طاولة الفورميكا الزهرية ودائمًا في المكان نفسه، بالقرب من النافذة، مع إطلالة على حمامتين من الخشب وسقوف الزنك ذات اللون الرمادي المزرق، وجمجمة البانتيون. يتكلم رزا في غرفته بالهاتف منذ نصف ساعة. يتحدث بلغة الداري. يتحدث كما يتحدث المرء لغته الأم، بسرعة ودون جهد، يبث فيها العواطف في تشكيلات لانهائية للصوت.. كأنني أسمع رزا يتكلّم لأول مرة. أفكر في النص المقلق للفيلسوفة حنا أرندت: «نحن -اللاجئين الآخرين- فقدنا لغتنا الأم، أي ردود أفعالنا الطبيعية وبساطة إيماءاتنا والتعبير التلقائي عن مشاعرنا»[27]

لفرط سماعي رزا، وهو يتعثر بكلمات فقيرة وغير دقيقة، اعتقدت أن مردّ ذلك إلى تركيبة عقله المفتقرة للغة، وغير القادرة على الرقة والبساطة، ولكننا ننسى دائمًا أن الشخص الذي يتلعثم في لغة معينة، فهو يجيد لغة أخرى.

(27) Hannah Arendt, La Tradition cachée, traduction Sylvie Courtine Denamy, Christian Bourgois éditeur, 1990.

26 أبريل

إنه يوم عظيم.. وضع ماريوس ونوح قبعتين وربطتي عنق على شكل فراشة وجداها في صندوق التنكر. أما رزا، فارتدى قميصًا أبيض مرصعًا بأحجار الراين، ورش على نفسه عطرًا مذهلاً، تفوح منه رائحة البخور والورد الكيميائي. نحن مستعدون للذهاب إلى الحفلة الموسيقية. وبتعبير أدق، إلى البروفة العامة للحفل الموسيقي الذي ستقدمه أوركسترا الغرفة الباريسية وفرقة كنيسة نوتردام الموسيقية. نحن مدعوون من طرف جمعية سامو. كما قال نوح لرزا: «بفضلك سنذهب إلى الحفلة!» يا للغرابة! لم تطأ قدمي أبدًا أرضية الكاتدرائية الأكثر شهرة في العالم، والتي لا تبعد عن منزلي سوى مسافة اثنتي عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام. كلما مررت أمام نوتردام، يتملكني إحساسان لا يمكن التوفيق بينهما وهما: أن أكون في مكان الحقيقة، وفوق الجلد المتأثر والمتجعد لعالم عمره ألف عام، وحضور تصوير فيلم. هوليوودي، حيث آلاف تشعر بالملل، الآلاف من الممثلين الثانويين الذين يمثلون دور سياح ضجرين ضجرًا كبيرًا ما بين تصوير مشهدين.

يجب أن نمر أولاً عبر البوابة، على جانب الكاتدرائية التي يحرسها رجلا أمن، سألنا أحدهما بجفاء: «لماذا أنتم هنا؟ شعرت أن رزا وهو بالقرب مني يتحرك بتوتر متطلعًا نحو البعيد، حيث نهاية شارع كنيسة نوتردام. أمسكته من ذراعه ثم دخلنا الكنيسة.

تجلس امرأتان خلف طاولة تنتظران أن نقدم لهما أسماءنا لشطبها من قائمتهما. عندما يحين دوره، يقول رزا متردداً، نوروزي رزا. تجد المرأة على الفور اسمه وتمد إلى رزا تذكرته لحضور الحفلة. يبدو أنه اندهل من وجود اسمه مدرجًا في قائمة المدعوين. ابتسامته الرزوية الرائعة آخذة في الظهور. نعبر الكاتدرائية إلى الصف الأول حيث خصصت لنا خمسة كراسي. اغرورقت عيناي بالدموع. ما الذي يجعلني منفعلة كثيرًا؟ ربما محاولة مني للتصالح مع هذه الكاتدرائية المحبوبة وغير المحبوبة، أو ربما جمال الأحجار والزخارف الزهرية التي عبرتها أشعة الشمس الأخيرة. أو وجودنا نحن الخمسة داخل نوتردام. جلس رزا بجواري، فشعرت فجأة وكأنه وصل في النهاية، وقد أنهى أوديسته وستبدأ حياته أن تتجذر هنا، وتنمو هنا، وتزهر هنا، في فرنسا.

اتخذ الموسيقيون أمكنتهم..

- الأطفال الذين تراهم خلفهم، يا دانيال، هم الجوقة.. سوف يغنون.

- أنت أيضًا تغنين في جوقة.

- نعم، إلا أنني أغني في جوقة كلية نانتير، هي أقل أناقة (chic) بكثير!

- chic! رزا يضحك. chic، مامعنى هذه الكلمة؟

- شيك، وهذا يعني أناقة... أنيق جدًا... بأسلوب رائع، ماذا!

- مثلنا! يهتف رزا، مشيرًا بيده إلى قمصاننا وربطات العنق على شكل فراشة التي يضعها ماريوس ونوح.

خلال الحفل، لم يرفع نوح عينيه عن الكونتروتينور[28]، كما لو كان تجليًا خارقًا. مال نحوي وهمس قائلاً: «ولكن هل تعتقدين أن هذا هو صوته الحقيقي؟» لم يتوقف ماريوس عن الحركة في الاتجاهات جميعها، ثم استسلم للنوم واضعًا رأسه فوق ركبة أبيه. تملكتنا أنا ورزا نوبة من الضحك بسبب مغنٍّ شاب ذي شعر أشقر ينغمس في الموسيقى بشغف، متأرجحًا بشدة، من اليمين إلى اليسار. وجهه معبر بشكل لا يصدق، تتحوّل معالمه المحاكية والمنتشية. كلما تمكنت أنا ورزا من استعادة هدوئنا، بدأ المغني الصغير رقصته الساحرة مرة أخرى، فتنقدح نوبة ضحكنا من جديد.

عدنا مشيًا على الأقدام، وببطء شديد، متأملين، على طول نهر السين، انتشار الضوء الذهبي لمصابيح الشوارع، فوق سطح الماء، وكأنه ملايين الأشعة اللامعة. قال رزا أن الحفل كان جميلاً. كان نوح يغني بصوت مرتفعٍ مقلدًا الكونتروتينور عندما قلت لماريوس أنه نجح في النوم بالقرب من أوركسترا لا تبعد سوى مترين عن أذنيه، لكنه صرخ: «أنا لم أنم على الإطلاق! كنت

(28) نوع من الأصوات الغنائية الرجالية الفريدة والجميلة، وهو صوت رجولي يعدّ أعلى من المجال الوسطي. يصنف الصوت بأنه يحتل مجالاً يشبه الكونترالتو أو الميزو-سوبرانو. يستخدم الكونتروتينور عادة في الموسيقى الكورالية للأصوات الرجالية، وفي الأدوار الأوبرالية.

مسترخيًا للاستماع إلى الموسيقى بشكل أفضل! انفجر فابريس ورزا من شدة الضحك. كان رزا يسير بيننا بهدوء وسكينة، دون أن يترقب المخاطر في الأفق.

سرنا نحن الخمسة، تحت القمر سعداء، يباركنا الحظ.

* * *

إنه منتصف الليل.. الجميع نيام، وأنا أكتب قصيدة.

تحت ملتقى التصالب

في خطوط مسالمة يغني الأطفال

جامدين

باستثناء هذا الفتى

ذي الشفاه المنتشية

الغارق في الهذيان

ذي الرموش الذهبية

والشعر الناريّ المنتصب

والأصابع المحتضنة للهواء القديم

وكأنه يمسك الكاتدرائية بين يديه.

بابان يؤديان إلى الصالون: باب غرفة ماريوس ونوح، وباب غرفة رزا. أسمع نوح يتكلم في نومه ينطق اسم أخيه.. بعد ذلك بقليل، يضحك. في وقت لاحق أيضًا، يحلم رزا بكابوس.. لا يقول شيئًا، يئنّ. فجأة، يصدر نوعًا من الصراخ المكتوم والحاد.

فأشعر بألم في بطني. ماذا يدخل في رأس رزا خلال الليل؟ أي نوع من الخوف؟ ما الحدود التي سيعبرها مرارًا وتكرارًا؟ أي نوع من الحزن إثر فقدان كل ما يكتسي أهمية؟ في النهاية، ربما لم تنته رحلة رزا بعد.

قنبلة يدوية

29 أبريل

يجب أن يرسل رزا نسخة من بطاقة إقامته لاستكمال طلب «مكافأة الفعالية».

بعد أن كتب على المغلف عنوان صندوق المساعدة الأسرية، قلت له «هوب!».

ما معنى «هوب»؟ يسأل رزا. «هوب»، بكل بساطة... نقول «هوب» عندما تكون قد فعلت شيئًا وصرت سعيدًا بإنجازه، فأنت تقول «هوب!» على سبيل المثال: «عندما صنعت فطيرة التفاح. هوب! ويجب فقط أن أضعها في الفرن!» أو إذا تمكنت من القفز فوق حاجز، فأنت تقول«هوب!» أو عندما تريد أن تحفز نفسك... إذا كنت تشعر بالكسل كي تركض، وأخيرًا تتمكن من إيجاد الدافع، فأنت تقول: «هوب! ها قد انطلقنا!» ينظر رزا إلي بعينين جاحظتين وضائعتين:

– هل نقول: «قفزٌ أم قفزة»؟

– لا هذا ولا هذه، «هوب»، بكل بساطة! مثل غْلُو غْلُو... بْلوفْ..كْراكْ..بوومْ! هوب كلمة تحاكي صوت شيء ما.

- كراك بووم؟

- اسمع! هوب، كلمة صغيرة تقول كل شيء ولا شيء. يمكن أن نضعها في أي مكان.

- هل نقول هوب كيف حالك؟

- لا، هنا لا يمكن استعمالها. في الواقع لا يمكننا وضعها في أي مكان.

- هل يمكنك أن تريني صورة «هوب» في غوغل.

- يا دنيال، لا يمكنني أن أريك صورة «هوب»، لأنه لا يوجد!

- لا يوجد هوب؟ كل شيء موجود!

- بلى، كل شيء موجود، لكن هوب لا يمكن التقاط صورة لها! فهي ليست شيئًا وليست مادة ولا حتى فعلاً!

- إذن، اشرحي لي ما معنى «هوب»؟

- حسنًا، «هوب» هي صعود نحو الأعلى. هوب! إنه مثل القفز فوق شيء أو التخلص من شيء يجب القيام به، «هوب! ها قد أنهيت عملي!»

- ما لون هوب؟

- لا يا دانيال، هوب ليس له لون. هوب، إنها صيغة تعجب.

- صيغة تعجب؟

- صيغة تعجب، إنها... كيف أشرح لك ذلك... إنها كلمة يضيفها المرء، دون تفكير، عندما يتحدث المرء ويعبر عن انفعال... على

سبيل المثال: أوف! وهذا يعني أننا نشعر بالارتياح.. «أوف! كنت خائفة، ولكني أشعر بتحسن!»

- وماذا عن هوب؟

- وهوب... تعني أننا نعبر عن شيء حدث فجأة... «هوب! لقد رحل راكضًا!»

- من؟

-لا أحد يا دانيال! لا أستطيع شرح كلمة هوب؛ إن الأمر معقد للغاية.

- أنت قلت إن هوب شيء بسيط جدًا.

- كنت مخطئة... هوب، أمر معقد جدًا.

- اشرحي لي هوب أكثر.

رزا عنيد جدًا.. عنيد بشكل مدهش. ربما أكثر عنادًا مني. أشعر أحيانًا أن إلهًا قاسيًا قد رتب لقاء الشخصين الأكثر عنادًا في العالم في الشقة نفسها.

30 أبريل

بينما كان ماريوس ونوح يلعبان بالتورتينيت على ضفة نهر السين، كنت أنا ورزا نلعب تنس الريشة. تتمثل تقنية رزا في ضرب الريشة كي ترسم قوسًا عاليًا ومهيبًا في الهواء. وتتمثل تقنيتي، في خرق القوس بضربة عنيفة من المضرب، بحيث تندفع مباشرة إلى وجه خصمي. كان هنا كشخص يجلس على

مقعد مجاور لا يتوقف عن مراقبة لعبنا، عاقدًا يديه، حذاؤه ممزق، يضع بجانبه كيسين باليين مملوءين بالكامل.. عند قدميه يجلس كلب يتدفأ تحت الشمس. أتساءل: ما الذي يفكر فيه رزا عندما يرى شخصًا بلا مأوى. هل يخشى أن يجد نفسه، مرة أخرى، يومًا ما، يعيش تحت الجسر؟ يبدو أن أكثر من نصف الفرنسيين يتخيلون أنفسهم وقد أصبحوا بلا مأوى في يوم من الأيام. فجأة يبدأ الكلب بالركض نحونا، ثم يقفز ممسكًا بفمه ريشة التنس. صاح رزا بكلام بلغته، ثم قال لي مندهشًا: «هل تسمعين؟» أنا أكلمك بلغة الداري! عندما يلفظ كلمة «داري»، فهو يستمتع بها. إذا كنت وحيدة في نهاية العالم، وإذا فقدت كل شيء ولم يكن لدي سوى اسم لغتي، فأنا متأكدة من أنني سأهمس: «الفرنسية، الفرنسية، الفرنسية»، كاسم أعظم حب في حياتي.

أثناء استرجاعه للريشة، أخبرني رزا أنه كان يملك كلبًا عندما كان صغيرًا. في يوم من الأيام، اكتشف هذا الكلب الذي لم يتوقف عن حفر التراب قنبلة يدوية. كان عمر رزا خمس سنوات. كان يعرف ماذا تعني الحرب، لكنه لم يسبق له أن رأى قنبلة يدوية من قبل. لأسابيع، لم يترك قنبلته التي أصبحت لعبته المفضلة. في أحد الأيام، أظهر باعتزاز كنزه لعمه، لكن هذا الأخير انتزع القنبلة من يديه وصفع رزا صفعة كبيرة، ثم ألقى القنبلة في سلة الأزبال. أخبرني رزا مستشيطًا غضبًا: «يا له من عم مجنون! لم يكن طيبًا.

لا يجب أبدًا وضع قنبلة يدوية في سلة الأزبال! لا تضعي أبدًا قنبلة يدوية في سلة الأزبال! أحمل مضرب تنس الريشة في يدي وأقول لنفسي: لم أفكر مطلقًا في هذا السؤال، أين نرمي قنبلة حرب يدوية يا ترى؟ بالتأكيد ليس في سلة الأزبال. الآن عرفت.

6 مايو

عندما غادرنا حديقة النباتات، التقيت أنا ورزا مجموعة من ثلاثة رجال، وامرأة وطفل، جالسين على الرصيف. «أعتقد أننا لا نساعد هؤلاء الناس»، قال رزا. لا أعرف بالضبط ما يعنيه. هل يقصد أننا لا نفعل أي شيء لمساعدة هؤلاء الأشخاص الخمسة ليتجاوزوا مشكلاتهم؟ جميعنا نسير بسرعة في المدينة، تمتصنا أفكارنا، غير مبالين بمصير عشرات الآلاف من الناس الذين يعيشون في الشارع وفي مراكز الإيواء؟ أو أن الحكومة هي التي لا تتخذ أي إجراء لمساعدة أولئك الذين يعيشون في المجاري، مثل الفئران؟ في كل الأحوال، فقد استعمل ضمير الجمع «نحن».

في حياتنا الاجتماعية الدائمة نحن والآخرون -الأقوياء والضعفاء والمندمجون والمستبعدون، أولئك الذين يشتركون في طريقة الحياة نفسها والآخرين- يفصل رزا، بين هو وأنا، وبين ضمير «نحن». لأن لدينا وظيفة وسقف، بينما الآخرون لايملكون شيئًا. يسألني رزا إذا ما كان هؤلاء الأشخاص من جنسية رومانية. أجيبه بأنني أعتقد أنهم رومانيون، لكنني لست متأكدة. يسألني رزا إذا كان يحق لهم الحصول على دخل التضامن الاجتماعي.

هـذا أمـر لا يصـدق، لـم أسـأل نفسـي هـذا السـؤال أبـدًا. ألتقـي يوميًـا برومانييـن علـى أرصفـة باريـس وفـي ممـرات المتـرو، دون أن أقلـق بشـأن مـا إذا كان بإمكانهـم تلقـي أمـوال مـن الدولـة الفرنسـية. أجيـب رزا أنـه إذا كان هـؤلاء الأشـخاص رومانييـن، فهـم جـزء مـن المجتمـع الاقتصـادي الأوروبـي، ويمكنهـم بذلـك البحـث عـن عمـل فـي فرنسـا والتسـجيل فـي مكتـب العمـل وطلـب المسـاعدة الماليـة. مـن الناحيـة القانونيـة، لا أرى مـا الـذي يمنعهـم مـن ذلـك. فـي الحقيقـة، أنـا لا أعـرف إذا كان مـن حقهـم ذلـك.

نسـير نحـو صالـة الألعـاب الرياضيـة التـي رصدتهـا علـى الإنترنـت. منـذ أسـابيع، وأنـا أبحـث لـرزا عـن الصالـة المثاليـة، الـذي لـم يسـتطع أن يختـار، حتـى تحـول الأمـر إلـى مزحـة متبادلـة: إمـا أن تكـون الصالـة باهظـة الثمـن، أو أنهـا بعيـدة جـدًا، أو أنهـا صغيـرة جـدا؛ أو أن العامليـن فـي الاسـتقبال ليسـوا ودوديـن. نظريتـي السـرية هـي أن رزا لا يشـعر برغبـة فـي ممارسـة الرياضـة. توقـف رزا ليرينـي شـرفة مـن الحديـد، مصنوعـة علـى شـكل زخـارف حلزونيـة وأغصـان. توجـد فـي الطابـق الخامـس مـن البنايـة «انظـري، يـا إميلـي... إنهـا جميلـة!» رفعنـا رأسـينا إلـى السـماء معجبيـن بالشـرفة الممتـدة على طـول الواجهـة. يهدينـي رزا مدينتـي. أفكـر فـي الكاتـب فيكتـور سـيرج وسـطوره الجميلـة: «أنـت أمـام منظـر طبيعـي، هنـاك شـخص بالقـرب منـك، تمـد يـدك.. أنـت تقـول أرى، لأنـك تريـد أن تهـب مـا تـراه للآخريـن، وهـذه بدايـة كل شـيء[29]»

(29) Victor Serge, S'il est minuit dans le siècle, Éditions Grasset & Fasquelle, 1939

حبيبي مارك زوكربيغ.

7 مايو

في الجناح الجديد، بمتجر كارفور، تحدّق إليّ سيدة عجوز بغرابة. تهز منكبيها وتنصرف بعيدًا وهي تسحب حقيبة إسكتلندية. لا أريد أن أكون مصابة بذهان العظمة، لكن أمينة الصندوق ابتسمت لي بغرابة أيضًا. في الشارع، يتصرف الناس بطريقة لا تصدق.. عيونهم تلاحقني.. أشعر بأني مشعة. يبدو الأمر وكأنه حلم.. كل شيء يبدو مألوفًا وغير طبيعي. حقيبتي للتسوق على كتفي، أتوقف أمام واجهة دار نشر. من بين الكتب المعروضة، هناك كتاب أخذت منه الدار اسمها: صوت الزمن[30]، من تأليف أوسيبي ماندلستام. في هذه المجموعة من النصوص السيرذاتية، يكتب الشاعر: «ماذا كانت تعني عائلتي؟ لا أدري». كانت تتلعثم منذ طفولتها، ومع ذلك كان لديها ما تقوله. على عاتقي وعلى الكثير من معاصرينا يرزح تلعثم الولادة. لقد تعلمنا ألا نتكلم، ولكن أن نتأتئ، فقط. من خلال الاستماع إلى ضوضاء

(30) Ossip Mandelstam, Le Bruit du temps, traduction Édith Scherrer, Éditions Christian Bourgois, 2006.

القـرن المتزايـدة، ومـرة أخـرى عندمـا تضمَّخنـا برغـوة ذروتهـا اكتسـبنا لغـة. «فـي كل مـرة أقـرأ هـذه الكلمـات -«لقـد تعلمنـا أن نتأتـئ»- يصبـح جسـدي دمعـة، دمعـة تتمسـك بقـوة، تتمسـك بعيـن هائلـة، ولكنهـا مهـدَّدة أن تنـزل بأدنـى هبـة نسـيم. أفكـر فـي هـذه التأتـأة التـي تحاصرنـا بالكلمـات منـذ الـولادة. أفكـر بـرزا وتأتأتـه المبهـرة.

وفجـأة رأيـت علـى زجـاج واجهـة دار النشـر قطعـة مـن الخيـار ملتصقـة بمنتصـف جبهتـي.

8 مايو

يفتـح رزا بـاب غرفتـه وهـو يصـرخ، «خطيـرا خطيـر جـدًّا!» لقـد شـاهد تقريـرًا عـن مسّـاحات الأذن القطنيـة. يقـول لـه فابريـس إنـه يجـب علينـا تجنـب دفـع العـود إلـى داخـل الأذن كثيـرًا، إذا قمنـا بذلـك بحـذر، فـلا خطـر مـن الإصابـة. «يقولـون إنـه خطـرا أعتقـد أنـه علينـا أن نرمـي مسـاحات الحمـام فـي سـلة الفضـلات، يقتـرح رزا، والـذي يبـدو قلقًـا حقًـا ولا يفهـم تفاهاتنـا. عندمـا أفكـر فيمـا تغلـب عليـه، عندمـا أتخيلـه متشـبثًا بمحـور شـاحنة تسـير بسـرعة مئـة كيلومتـر فـي السـاعة علـى الطريـق السـريع مـن أجـل عبـور أوروبـا، فأنـا أجـد صعوبـة فـي فهـم الخـوف الـذي تملكـه مـن عـود صغيـر مغلـف بالقطـن. إنـه الخـوف الـذي يجـب أن يكـون طفوليًـا مقارنـة بمخـاوف أخـرى حيّـة ومسـتبدة.

يعدّ رزا الكمبيوتر كائنًا حيويًا يتيح له مواكبة الوضع في أفغانستان، والاتصال بالأشخاص عبر السكايب، ومشاهدة البرامج بالفارسية ومقاطع الفيديو على اليوتيوب، ومسلسلات تجعله يضحك ضحكًا صاخبًا، مثل صبي يبلغ من العمر أربع سنوات، يشاهد فيلم باستر كيتون. عندما وصل رزا إلى المنزل، نشرت رسالة على الفيسبوك لأطلب من أصدقائي إذا توفر لديهم جهاز كمبيوتر محمول ليقدموه إلى ضيفنا. عرض عليّ اثنا عشر شخصًا خلال ساعة واحدة جهاز كمبيوتر في حالة عمل مثالية، أوحى هذا الزخم من السخاء بفكرة لنوح، فقال:

- فلنأخذ أجهزة الكمبيوتر الاثني عشر ونبيعها! بهذه الطريقة نجني الكثير من المال.

- ولكن يا نوح! القيام بذلك يعد دناءة كبيرة!

- لا، لا! ذلك يعتمد على ما سنفعله بالمال!

لم أعمل بنصيحة نوح، لكنني فكرت في هذه الحواسيب الاثني عشر فترة طويلة. وفي الاثني عشر شخصًا الذين كانوا على استعداد ليقدموا لرزا هدية قيمة. فكرت بهذا الرجل من الألزاس الذي لم أعرفه أبدًا في حياتي، صاحب الشارب المثير والرائع على شكل مقود، وهو يضع كمبيوترًا محمولاً جديدًا في المنزل. في ذلك اليوم، باركت مارك زوكربيرج، وقلت لنفسي أن الفيسبوك ليس مجرد مرآة مثيرة للاشمئزاز.

لن نسجن لهذا السبب

12 مايو

بينما كنا نسير نحن الخمسة للقيام بنزهة في الحي، وفي مقدمتنا رزا، التقينا كاثرين وأوليفييه، جيراننا في الطابق الثاني.. لقد غادرا منزلهما ليتركا ابنهم البالغ من العمر خمسة عشر عامًا وصديقته وحدهما. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقضيان لحظات وحدهما في الشقة. عندما رأى اندهاشي وتخوفي، أراد أوليفييه توضيح الأمور فقال: «إنهما عاقلين!» لم أستطع أن أتمالك نفسي عن الضحك، فاغتاض أوليفييه قال: «ما هذا الضحك المريع؟»

سألني رزا هذا الصباح، عن هؤلاء الجيران المضطربين قليلاً والمتفرغين الذين كانوا ينتظرون في الشارع أن ينتهي ابنهم من تقبيل صديقته. ما تأثير هذه القصة على حياة رزا؟ هل عرف هذا النوع من الحب؟ على الرغم من البرد والخوف، هل أحبَّ؟ هل نفكر في ذلك عندما نهرب من الحرب ونختبئ؟ حدثني رزا كثيرًا عن الممثلة الإيرانية غولشفته فرحاني. كان لها سيماء من الإثارة والسذاجة التي تظهر على العشاق العظماء.

10 مايو

أمام نظرات ماريوس ونوح المفعمة بالإعجاب، يصنع رزا طائرة مقاتلة ذات أنف طويل مستخدمًا بدقة كل جزء من علبة السجائر.

- هل تعلمت أن تفعل ذلك في النرويج؟ يسأل ماريوس.
- لا
- في أفغانستان؟
- لا
- في إيران؟
- لا
- في تركيا؟
- لا
- في اليونان؟
- نعم!

يحفظ ماريوس، عن ظهر قلب، كل خطوة من رحلة رزا، الذي أخبرنا أن شخصًا في السجن، علمه كيف يصنع طائرة من علبة سجائر بسيطة.

في السجن، ولكن ماذا فعلت؟ لماذا دخلت إلى السجن؟

أعرف تغيرات صوت ماريوس جيدًا لدرجة أنني اكتشفت المشاعر التي يخبؤها في كلماته الأخيرة: ذهول وخيبة أمل. يمكنني أيضًا أن أقرأ أفكاره: «دخلت إلى السجن لأنك فعلت

شيئًا خطيرًا جدًا! بينما نحن نثق بك».

يوضح رزا لماريوس أنه بسبب عدم توفره على وثائق تسمح له بالإقامة في اليونان، أمضى واحدًا وعشرين يومًا في السجن. «لكن هذا غير ممكن! يهتف ماريوس. لن نسجن لهذا السبب! أليس كذلك يا أمي، لن نسجن، لأننا لا نملك أية وثائق؟»

أحكي لماريوس أنه عندما زرت السجن، قابلت رجالاً لا يحملون وثائق كانوا وراء القضبان فقط لرفضهم مغادرة الأراضي الفرنسية. يغضب ماريوس.. «ولكن هذا ليس عدلاً! لن نسجن لهذا السبب! وأنتِ، أنتِ يا أمي، لمَ لا تقولين أي شيء؟»

التحق نوح بماريوس ورزا وجلسوا جميعًا على الأريكة. يشرح رزا للأطفال بصوت هادئ ومطمئن أن الأمور بالنسبة له أصبحت على ما يرام. يملك وثائق تمنحه الحق في العيش في فرنسا. يمكنه أيضًا السفر. يُري الصبيين تصريح إقامته ووثيقة سفره. يحدّث ماريوس رزا عن الكتاب المصور الذي يقرؤه وهو مكرس لقصة لاجئ سوري شاب قدم إلى فرنسا.[31]

يا دانيال، هل تعرف ماذا تعني كلمة «ديكتاتور»؟

نعم، أعرفها...

هل تعتقد أن فرنسا يمكن أن يكون فيها ديكتاتور؟

---

(31) Kyungeun Park et Nicolas Hénin, Haytham, une jeunesse syrienne, Dargaud, 2016.

في فرنسا، مستحيل.

- نعم يا دانيال، هذا ممكن! قبل ثلاثة أيام، كما تعلم، انتخبنا رئيس الجمهورية...

- إيمانويل ماكرون.

- نعم، انتخبنا ماكرون، لكن لو فازت مارين لوبين، فستكون ديكتاتورة.

- مارين لوبين ديكتاتورة؟

- ستكون ديكتاتورة جيدة! هي عنصرية فعلاً. من المهم جدًا أن تكون عنصريًا كي تكون ديكتاتوريًا.

- مارين لوبين، لا تحب المهاجرين؟

- لا... آسف يا دانيال، لكن مارين لوبين لا تحب الأجانب. إذا كانت في السلطة، فسوف تعيدك إلى بلدك حتى لو كانت فيها حرب، هي لا يعنيها ذلك.

- لماذا لا تحب مارين لوبين المهاجرين؟

- لا أعرف يا دانيال، ولكن لا تقلق، نحن لم نصوت لها؛ يمكنك البقاء طوال حياتك، لن تكون هناك أية مشكلة.

خذ اللغة

11 مايو

أرافق رزا إلـى مقـرّ جمعيـة محليـة حيـث يقدم المتطوعون دروسًـا فـي اللغـة الفرنسية للمهاجريـن. كان مـن بيـن الطـلاب عراقـي يبلـغ مـن العمـر تسـعة عشـر عامًـا. وصـل قبـل يوميـن إلـى فرنسـا وتوغل فـي لغـة مجهولـة. لا يسـتطيع أن يقـول: «صبـاح الخيـر». لا يعـرف كيـف يقـول: «نعـم». لا يعـرف كيـف يقـول: «لا». أعتقـد أننـي لـم أر صبيًـا جميـلاً مثلـه فـي حياتـي. وجـه منحـوت بطريقـة شـاعرية.

مـا أجمـل هـذه النظـرة الهادئـة والحنـون! وهـذا الوجـه الخيالـي الهائم! كان يرتـدي ملابس سـوداء ويضـع وشـاحًا طويـلاً. قد يخيل لمـن يـراه أنـه انتهـى للتـو مـن عـرض أزيـاء مجموعـة خريـف – شـتاء الخاصـة بالمصمـم إيـف سـان لـوران[32]

لا يمكـن دمـج هـذا الشـاب العراقـي فـي واحـدة مـن مجموعـات العمـل الحاليـة، سـتكون لديـه فـي هـذا المسـاء مدرسـة خاصـة، وسـتكون مرتبكـة مثلـي مـن جمـال هـذا المسـيح المتجسـد. صافحنـي اثنـان مـن الطـلاب، كانـا غايـة فـي الارتيـاح والفصاحـة. أخبرنـي

(32) إيف سان لوران، مصمم أزياء فرنسي ولد في مدينة وهران الجزائرية، التحق بدار كريستيان ديور في باريس عام 1954 بعد فوزه بمسابقة للتصميم عندما كان عمره 18 عاما، وبعد 3 سنوات فقط عين رئيسًا لدار الأزياء بعد وفاة صديقه ديور. يعدّ من أشهر مصممي الأزياء في القرن العشرين. توفي عام 2008.

بتكتم صديق كاتب ينتمي إلى مجموعة المدرسين المتطوعين، أنهما من منطقة كابول ويتحدثان لغة الداري. أنا سعيدة من أجل رزا، لأنه سيكون قادرًا على التحدث بلغته الأم مع شخصين من وطنه.

في تلك اللحظة ذاتها، سأل أحد الأفغان رزا عن بلده. وأمام دهشتي، أجاب رزا، «من آسيا»، ثم تجهم وجهه معبرًا عن تبرمه وانطوائيته. لم يتحدث إلى الأفغانيين، سواء أثناء الحصة أو بعدها.

في طريق العودة، لم أجرؤ على طرح أي سؤال. شعرت بإحراج أثقل تصرفاتنا، فتفادى رزا نظراتي. تعاقبت محطات المترو الواحدة تلو الأخرى: غي موكيه، ساحة دو كليشيه، لافورش، ليبج... أخيرًا، كسر رزا الصمت وأخبرني بكلماته المتشائمة والمترددة، أنه لا يعرف هؤلاء الأشخاص، ولا يعرف القرى الأفغانية التي جاؤوا منها، يجب أن نكون حذرين دائمًا. يمكن أن تحدث أشياء هنا أو هناك. هناك عائلات تقاتل بعضها بعضًا، وهناك انتماءات عشائرية. إنها الحرب.

17 مايو

أنغمس في كتابة روايتي (اختطاف سابين). يجلب لي رزا فنجانًا من الشاي، كما يفعل دائمًا عندما أكون منهمكة في العمل ونكون وحدنا في الشقة. يجلس إلى جانبي.. أسمعه وهو يرتشف الشاي.. أشعر وكأنه يريد أن يقول شيئًا، لكن في بعض الأحيان،

عندما نكتب، لا يمكننا الهروب. الجسد مأخوذ في نهر الكتابة، فنسمح لأنفسنا بأن نُحمل، وننتمي إلى حلم ندين له بحياتنا. من فضلك يا دانيال، ليس الآن، أتوسل إليك، سنتحدث لاحقًا... أنا لا أقول له شيئًا، لكنني أفكر فيه بقوة شديدة. يقع صوته مثل جسم ثقيل فوق الطاولة: «إميلي، لا أستطيع تعلم اللغة الفرنسية».

نبرته آسفة، أفهم أن الحاجز لا يمكن التغلب عليه، لأن تعلم اللغة الفرنسية ليس فقط تعلم كلمات غير معروفة وطريقة غامضة لترتيبها.. إن تعلم الفرنسية هو بمثابة مسح للطاولة.. إنه الجهد النهائي للانبعاث بعد إنفاق القوة كلها للبقاء على قيد الحياة خلال تلك الحرب. بعد عقد من النفي، والبؤس الذي لا نهاية له والمتمثل في فقد كل أثر لعائلته؛ تعلم رزا في النرويج لغة منحته أملاً في حياة جديدة.. تعلم قواعدها جيدًا، فوهب عقله لهذه اللغة بانفتاح كبير، وذكاء، وسرعة. لقد تعلم التحدث بها بطلاقة عالية، وهذا يعني أنه اكتسبها بطريقة سلسة وواثقة وشخصية. لكن، في يوم من الأيام، رفضت الدولة النرويجية طلب اللجوء الذي تقدم به رزا، وهكذا اندلعت النيران في اللغة.. كان الأمر كما لو أن منزل رزا شبت النيران فيه، كان عليه أن يتركها بشكل عاجل، دون أن يلتفت إلى الوراء. كان كل شيء يحترق.. الوعد يحترق.. اضطر رزا إلى الفرار.. الفرار مرة أخرى والاختباء.. وصل إلى فرنسا حيث كان لا بد من بداية جديدة. وأن يتعلم من جديد. لكن كان هناك شيء في داخله يرفض ويركل هذه

الموسيقى الجديدة والغريبة التي تسمى اللغة الفرنسية.

لا يستطيع تذكر الكلمات. ولا يمكنه حتى سماعها. يرتشف رزا رشفة من الشاي ويخبرني أنه عندما وصل إلى باريس، تلقى دروسًا في اللغة الفرنسية ثلاث مرات في الأسبوع. وبعد ستة أشهر، عندما استمع إلى أشخاص يتحدثون في الشارع، لم يكن يعرف ما إذا كانت فرنسية أم إنجليزية. لم يتعرف حتى على اللغة. كيف نعيش مع لغة لا نراها ولا ترانا؟

وضعت روايتي جانبًا، وبدأت كتابة قصيدة.

يريد أن يعرف اللغة

التي لا يحملها لسانه

ما العمل؟ يقول الشخص الذي أتى من بعيد

كيف تأخذ اللغة؟

كلماتك بلا معنى

كلما رنّ صوتك، ينسى كل شيء

وكلما سبحت نحو اللغة، تبتعد عنه

كم مرة يجب أن تتحطم

على شفاه أوروبا؟



الإلهة أثينا ذات عيني البقرة

18 مايو

يعود رزا من العمل ويقدم لي زهورًا اقتطفَها من مشتل أزهار خاص بالبلدية.. لم أستطع إخباره بأن سرقة الزهور العامة محظور، لأنها ملك للجميع.. ولا تعود ملك أحد حين يقطع المرء سيقانها، لأنها تموت.

نتناول العشاء نحن الخمسة، الجو بهيج. اشترى رزا مشروب فانتا وأنبوب المايونيز بنكهة الشواء. يشعر ماريوس ونوح بسعادة غامرة، يملأان كوبيهما بالكامل بالسائل البرتقالي، ويدفنان الفاصوليا الخضراء تحت طبقة سميكة من المايونيز الوردي. لم يسبق لهم تذوق هذه الملذات في الصناعة الغذائية. (وهذا كله بسبب خطأ والديهما اللذين أطعماهما الكينوًا العضوي والمعكرونة والسبيرولينا وحليب النباتات). سألني نوح عن سبب قضائي اليوم في المركز الوطني للكتاب. شرحت له أنني عضو في اللجنة التي تدعم المهرجانات والمؤلفين الأدباء بمنح مالية.

كم تعطونهم؟ يسأل نوح.

مئات الآلاف من اليورو.

لكن هذا كثير جدًّا! لن يتبقى مال!

فـي أوج سـنواته العشـر، يوضـح ماريـوس لأخيـه أن المـال ليـس لنـا، بل هـو مـن المـال العـام. ثـم يرتئـي أنـه مـن الجيـد تدقيـق كلامـه «ومـع ذلـك، فهـو مالنـا، لأننـا ندفـع الضرائـب». ردّ عليـه نـوح أنـه لا يدفـع الضرائب، لا هـو ولا الآخـر «إذن يـا ماريـوس، توقـف عـن قـول أي شـيء!»

- يـا نـوح، أنـا أتحـدث عـن أمـوال عائلتنـا! بالطبـع نحـن لا نجنـي المـال! نحـن مـا زلنـا طفليـن!

- وماذا في ذلك؟ هناك دول يعمل فيها الأطفال!

- حسنًا، وأين؟

- في الهند!

- حسنًا، لكنني لا أرى أية علاقة.

- العلاقة أن كلامي هوالصحيح!

- نقول، أنا على حق.

- يمكننا قولهما معًا!

- لا، لا يمكننا ذلك.

- بلى، ما دمت قد قلت ذلك!

- ليس لأنك قلت ذلك، فهي لغة فرنسية صحيحة.

- يقال ذلك بالفرنسية، ما دمت قد قلت ذلك بالفرنسية!

تمكـن رزا بأعجوبـة مـن التسـلل إلـى داخـل المبـارزة، فتمكن من الـكلام، يخبرنـا أن الفرنسـية تتحـدث بهـا أكثـر مـن خمسـين دولـة. فحاولنـا وضـع قائمـة لهـا: بلجيـكا... سويسـرا... لوكسـمبورغ...

كندا... كيبيك... المغرب... الجزائر... السنغال... بوركينا فاسو... بنين... جمهورية الكونغو الديمقراطية... النيجر... ساحل العاج... جيبوتي... مدغشقر... جزيرة موريس...

في المجمل، هي البلدان التي غزوناها لسرقة ثرواتها».. يقول ماريوس:

- لقد نسينا أنتيب!

يقول نوح منتصرًا:

- إنها ليست دولة!

يتنهد أخوه متحسرًا.

نقترح على رزا قضاء عطلة هذا الصيف في أنتيب، في منزل والدي. يحكي له نوح أننا نمسك بسرطان البحر ونعرف شاطئًا سريًا. يوضح ماريوس أن هذا الشاطئ ليس سريًا حقًا. لأنه لا أحد يستحم به، الطريق إليه شاقة ومتعرجة بين الصخور، تستغرق ثلاثين دقيقة تحت حرارة مميتة. وصفنا لرزا حديقة أمي الرائعة، الموجودة في قلب أنتيب القديمة، حيث البامبو، والياسمين، والورود، والبوغانفيليا، وأشجار الموز، وأشجار البرتقال، وأشجار الليمون، والكومكاتس، والرمان، وأوراق الأقنثة العملاقة وشيخ حديقة الجنة: شجرة الميس عمرها مئتا عام. «يا دانيال، لا أدري إن كنت تحب البعوض أم لا؟» قال نوح، «لكن في أنتيب يوجد الملايين! نملك محمصة خبز عملاقة في الحديقة لقتلها! سترى، إنه لأمر فظيع!»

يبتسـم ابتسـامة رائعـة، ويعلـن رزا أنـه سيسـأل المسـؤول عـن فريقـه غـدًا إذا كان بإمكانـه الحصول علـى عطلـة مـدة عشـرة أيـام خـلال شـهر يوليـو.

ومـن أجـل متابعـة السـهرة، نلعـب بلعبـة الـورق. يشـرح ماريـوس ونـوح قواعـد اللعـب. يسـمى هـذا اللعب «الرئيـس» وكنـا نسـميه «حزمـة التفاهـة» عندمـا كنـت طفلـة. لـم يحالـف الحـظ نـوح الـذي وجـد نفسـه فـي المرتبـة الأخيـرة عنـد نهايـة كل جولـة.

عـادة مـا ينفجـر بالبـكاء بمجـرد أن يخسـر.. لكـن الليلـة، وتكريمًـا لـرزا، أرى أنـه يسـتخدم تركيـزه كلـه لكـي لا ينهـار.. ذقنـه الصغيـر يرتجـف ويقـاوم بثبـات....

21 مايو

يجب أن تحضـر مالكـة البنايـة لتتفقـد وضـع شـرفاتنا، ومعهـا مهنـدس معمـاري. عبـر الهاتـف، أخبرتنـي أنهـا قلقـة، خاصـة مـن شـرفة الغرفـة الوسـطى (شـرفة رزا). قبـل وصولهمـا شـرحت لـرزا، بكل اللباقة الممكنة أن صاحبة شقتنا لا تعلم أن شـابًا أفغانيًا يعيش معنـا، وأننـا وقّعنـا عقـدًا مـع سـامو الاجتماعيـة نلتـزم فيه باسـتضافته خـلال سـنة. أخبرتـه أن النـاس، فـي بعـض الأحيـان، يكونـون مرتابيـن قليـلاً مـن المهاجريـن واللاجئيـن؛ لذلـك لـم أكـن أرغـب فـي التحـدّث إلـى المالكـة عـن وضعنـا. عندمـا سـتصل، سـأقدم لهـا رزا كصديـق أفغانـي. سـيكون عليهـا عبـور غرفتـه للوصـول إلـى الشـرفة، ولـن

تمكث طويلاً، خمس دقائق على الأكثر. يستمع رزا إلـيَّ باهتمام وبنوع من التوتر.

بعد ربع ساعة، رنت المالكة والمهندس جرس الباب، وهممت أن أقدم لها رزا، لكنني لم أتمكن من العثور عليه. لا يوجد في المدخل، ولا في المطبخ، ولا في الصالون. لا يوجد أحد في الحمام أيضًا. طرقت باب غرفته، لكنه لا يرد. اختفى رزا. لا شك أنه غادر الشقة دون أن أسمعه، قبل وصول زائرينا مباشرة. إنه يعرف كيف يتسلل خلسة. تتقدم المالكة أمامي، تعبر غرفة رزا، تفتح باب الشرفة الزجاجي، لكن عندما صعدت فوق الشرفة أطلقت صرخة قوية، فأسرعت نحوها:

- أنيت[33]، أقدم لك رزا! صديق أفغاني يقضي بعض الوقت معنا!

يتصافحان. يبدو رزا مذعورًا. عندما ذكرت شرفة غرفته، اعتقد أنني أطلب منه أن يختبئ هناك، خلال لقائي بالمالكة. لقد كان يختبئ في كثير من الأحيان طوال عشر سنوات، لدرجة أنه لم يجد اقتراحي شاذًا أو غير مقبول. شعرت بالخزي، لأنه اعتقد أني أريده أن يختبئ في المكان نفسه الذي من المفروض أن يشعر فيه بالأمان من كل شيء. عارٌ أن يختبئ في بيته.

22 مايو

قبل ثلاثة أيام، أحضر نوح من المدرسة نبتة طماطم بأوراق نادرة ومجعدة. كانت النبتة المسكينة مغروسة في كوب من

(33) Annette اسم علم للمؤنث.

البلاستيك مليء بفتات التراب المجفف. أخبرني نوح أن عليه أن يعيدها. وليس لدي لا تربة ولا أصيص للزهور. بدا نوح قلقًا جدًا: «أمي، ستموت إذا لم نفعل شيئًا!»

في المساء رأيت رزا يصب الماء عند حافة نبتة الطماطم وهو يحدثها ببضع كلمات، بلغة الداري.

23 مايو

أعدّ فابريس لحم بقر مشوي في الفرن. لم ير رزا أبدًا مثل هذا المشهد. يراقب السكين وهو يقطع شرائح كبيرة من اللحم النازف بالعصارة. اندهشت من سيماء وجهه المشمئز. يضع قطعة حمراء في فمه ويمضغها فترة طويلة. ألمح عضلات وجهه تتحرك بعصبية تحت جلده، وبالتحديد في مكان الفكين. أقول له إنه غير ملزم، إطلاقًا، بالتهام هذه البقرة البريئة. إذا كان يفضل فطائر الحبوب بالخضراوات، فقد أعددت ما يكفي لشخصين.. يقبل اقتراحي.. أشرح له أنني بمجرد رؤية لحم بقر مشوي في طبق، تظهر أمامي بقرة. بقرة حية، واقفة فوق الطاولة، قوية، تشيعني بنظرة كآبة لانهائية، تتوقع المصير الذي يهيؤه البشر لها ولعجولها وسلالتها الملعونة. كان هوميروس يعرف جيدًا جمال هذه النظرة التي يعطيها لقب «بوبيس» («عينا البقرة») التي يصف بها الإلهتين هيرا وأثينا.

أستريكس في مسعدة

24 مايو

منح رئيس فريق رزا في العمل إجازة.

- لماذا يا إميلي؟

- لأنه عيد الصعود، إنه يوم عطلة... نحن لا نعمل في ذلك اليوم.

- ما معنى الصعود؟

- إنه عطلة دينية. بالنسبة للمسيحيين، هذه هي اللحظة التي يصعد فيها يسوع إلى السماء بعد أن كان مع تلاميذه على الأرض آخر مرة.

يهتف رزا مرة أخرى:

-في ذلك اليوم، صعد يسوع إلى السماء أيضًا! لأنني لم أعمل فعلاً!

- في ذلك اليوم، كان يوم قيامة يسوع.. أي عيد الفصح.

- القيامة، بمعنى: أن تموت، وبعد ذلك، يتوقف الموت.

- نعم، هذا كل شيء.

- هوب، قيامة!

- بالضبط! هوب!

- إميلي... هل تؤمنين بقيامة يسوع؟

- لا أعرف كيف أجيبك على هذا السؤال يا دانيال.. أعتقد أنني أحب أن يجتمع الناس من أجل قراءة نص قديم جدًا. وأحب أن ينتقل هذا النص من جسد إلى جسد آخر أطول فترة ممكنة.

- أنت لا تؤمنين بقيامة يسوع؟

- وأنت يا دانيال، بماذا تؤمن؟

- أنا أومن بالكتاب المقدس.

يعتقد رزا أنه إذا كنا لا نعمل في عيد الميلاد أو عيد الفصح أو يوم الصعود، فهذا دليل على أن الدين مهم جدًا في المجتمع الفرنسي، وإلا فإن الشركات لن تقبل أن تدفع أجورًا عن أيام العطل لموظفيها. أخبره أنني أتفهم منطقه، لكن في الواقع، الفرنسيون ليسوا متدينين كثيرًا، وإذا استوقفنا عشرة أشخاص في الشارع لنسألهم ما هو الصعود، لست متأكدة أن أحدهم يمكنه أن يجيب إجابة صحيحة. ينظر إليّ رزا نظرة مرتابة.. وبعد لحظة من التفكير:

- هل ستأتي معي الآن؟ نسأل الناس في الشارع!

يجب أن أسلم بالحقيقة التالية: إنني وجدت شخصًا أكثر عنادًا مني.

9 يونيو

قضيت أسبوعًا في البحر الميت برفقة ماريوس. يسأل رزا ألف سؤال حول رحلتنا وهو يمرر أصابعه فوق بلورات الملح التي جمعناها على حافة البحر الميت. يحكي له ماريوس عن استحمامه.

- دانيال، لا يمكنك أن تتخيل كم الماء مالح! لدرجة أنه إذا وضعت قطرة واحدة في عينك، فستشعر أنها ستتمزق! وكم هو رائع وأنت تطفو لدرجة أنك لا تستطيع أن تبقي جسمك تحت الماء! البحر يخرجك من الماء![34]

- هل تخرجك أمك من الماء؟

- لا! ليست أمي! بل البحر الميت!

أطلعُ رزا على الصور الفوتوغرافية للموقع الأركيولوجي لمسعدة.

ثم يبدأ ماريوس من مقعده في سرد ملحمي: «كما ترى، يا دانيال، إنها مدينة محصنة، فوق هضبة... وفي أنحاء مسعدة كلها، توجد صحراء يهودا[35] والبحر الميت... إنها فائقة الجمال! يجب أن تذهب يومًا ما لزيارتها! يمكنك الذهاب إلى هناك، لأن لديك

---

(34) Mer البحر et Mère الأم: هناك تشابه لفظي واختلاف في المعنى.

(35) جبال يهودا في التاريخ تطلق بشكل أساسي على جبال الخليل، ومن ناحية جغرافية فهي المنطقة الممتدة من تل العاصور شمالاً إلى وادي بئر السبع جنوباً، وتمتد إلى صحراء يهودا شرقًا، وهي تشكل قلب مملكة يهوذا التاريخيّة.

جواز سفر! وبذلك سترى أن اليهود كان لديهم كل ما يحتاجونه للعيش هناك... المنازل والقصور... مخازن الغذاء وصهريج مياه محفور في الجرف... ذهبت أنا وأمي لرؤية الصهريج... لا يمكنك أن تتخيل ضخامته! مسعدة، مكان جيد للدفاع عن النفس...

نرى الرومان قادمين من بعيد... في أحد الأيام، قرر الرومان مهاجمة مسعدة... أقاموا معسكرات، كما في حكاية أستريكس، حول مسعدة كلها. ولكي يتسلّقوا إلى القلعة، صنعوا مدرجًا بلغ ارتفاعه مئة متر، راكموا فيه ملايين الحجارة وجذوع الأشجار والطين! المشكلة هي أن الرومان كانوا حوالي عشرة آلاف، بينما اليهود لم يبلغ عددهم حتى ألفًا... لهذا سلفًا، كما ترى، هذا ليس عدلاً! عندما وصل الرومان، حطموا السور بمدق[36]... والمدق وضعوه فوق برج متحرك، كما في أستريكس! إلا أنه في أستريكس، كان الرومان هم الخاسرون باستمرار...

لكن هنا، عندما دخل الرومان مسعدة، كان الجميع قد ماتوا! لقد انتحر اليهود جميعهم! لقد قتلوا بعضهم بعضًا حتى لا يؤخذ بهم الرومان! لو كان هناك أستريكس في مسعدة، لما حدث مثل هذا! ولكان اليهود قد شربوا الجرعة السحرية التي صنعها الكاهن بانوراميكس، وحطموا الرومان تحطيمًا!».

---

(36) المدق أو رأس الكبش: آلة تشبه رأس الكبش في بعض صورها - تستخدم لضرب الجدران لشقها. والمدق في أبسط صوره هو عمود خشبي يحمله عدد من الرجال، ويدفعونه بقوة لتحطيم عائق ما. سيكون زخم الحركة الذي يولده المدق كافيًا لتحطيم الهدف إذا كان العمود الخشبي ضخمًا بما فيه الكفاية، وإذا دُفع بالسرعة الكافية.

ألف عالَم

11 يونيو

أرى فوق حافة نافذة المطبخ نبتة الطماطم الخاصة بنوح.. كان على رزا أن يجمع التراب من الحديقة، ويعبئه في وعاء الحديد المغبر بجوار الثلاجة، ويضع نبتة الطماطم داخله، ثم يربط الجذع بأحد عيدان الأكل الصينية، بحيث يمكن أن يجعلها دعامة للنبتة. إنها جميلة جدًا، العناية بهذه الطريقة الصامتة بالأشياء الصغيرة ذات الأهمية، بدقة منسوجة بشاعرية، إن تصرفات رزا هي عش للمستقبل. عندما كنت أقوم بزيارات إلى السجن، قابلت شابًا انتزع نبتة ضارة، ذابلة وصغيرة من بين بلاطتين في فناء النزهة. كشط حافة البلاط، فتمكن من جمع حفنة من التراب. بعد عودته إلى زنزانته، سكب التربة في كوب وزرع النبتة الضارة هناك، ثم وضعه بين قضيبين حديديّين في نافذته، بحيث يمكنها أن تستقبل ضوء النهار. كان أول ما يفعله كل صباح هو سقي النبتة. نمَت النبتة وأخذت تخضر.. كان الشاب يحدثها: «كوني قوية، أنا هنا إلى جانبك» كل أسبوع، في قاعة الاستقبال، كنت أسأله كيف هي «الضارة»؟ كان هذا هو الاسم الذي منحناه لهذه الجميلة المتبناة.

12 يونيو

عـاد رزا إلـى المنـزل حامـلاً باقـة ورد جميلـة أحضرهـا هـذه المـرة مـن عنـد بائـع الزهـور.

- إميلي، الزهور لكم!

حاولـت دون جـدوى أن أخبـر رزا أن بمقـدوره أن يتحـدث معـي بصيغـة المخاطبـة، وليـس بصيغـة الجمـع، لكـن رزا لا يسـتطيع التوقـف عـن ذلـك: فـي معظـم الوقـت، يخاطبنـي بصيغـة الجمـع. وبلغـة الـداري أيضًـا، نخاطـب بصيغـة الجمـع الأجـداد، والأعمـام والعمـات، وفـي بعـض الأحيـان الآبـاء؛ لذلـك سـتصبح هـذه المـرة قاعـدة مـن قواعـد اللغـة الفرنسـية مألوفـة لديـه، لكـن رزا لا يريـد أن يسـتخف بهـا.

يتجـول رزا بعـد عملـه فـي باريـس مـن محطـة الشـمال إلـى سـاكري كـور مـن أوبـرا غارنييـه إلـى بـرج إيفـل. مـن مقبـرة مونتبارنـاس إلـى حديقـة لوكسـمبورغ. مـن حديقـة النباتـات إلـى المكتبـة الوطنيـة الفرنسـية. ثـلاث سـاعات دون أن يجلـس مطلقًـا علـى مقعـد. يخبرنـي رزا أنـه يحـب أن يكـون وحيـدًا وأنـه لا يعـرف السـبب؛ لذلـك فكـرت أنـه لا يشـعر مطلقًـا بالوحـدة والهـدوء فـي المنـزل، لأنـه يعيـش بيـن حضورنـا وأصواتنـا، وكل الجهـود، كل خيـال رزا يصـبّ فـي أن يكـون صغيـرًا. إن اسـتضافة شـخص مـا هـي رحلـة سـعيدة، لكـن أن تكـون موضـع اسـتضافة هـي مغامـرة دون راحـة. كيـف نسـتضيف شـخصًا معينًـا فـي بيتنـا؟ كيـف نجعـل رزا يشـعر بأنـه فـي بيتـه؟ كيـف نخبـره،

ولكن دون أن يشعر بذلك، إنه حر بأن يغني في الحمام، حر في الغضب عندما يكون في مزاج سيئ. حر أن يكون فوضويًا وأنانيًا ووقحًا، مثلما نحن جميعًا في بعض الأحيان. للترحيب بشخص ما، يجب أن تفعل مثل رزا: أن تكون صغيرًا.. لا تحيي بحزن شديد.. لا تسحق الضيف تحت صرخات الترحيب.. دعه يأخذ مكانه ويكون سيد تصرفاته بمرونة قدر المستطاع، مثل راقصين يرقصان مع بعضهما أول مرة.

13 يونيو

أزلت الكتب جميعها من مكتبات الشقة، عددها ألف، مرتّبة في أكوام حسب الترتيب الأبجدي. تبدأ كومتان بحرف «أ» واثنتان بحرف «ب» وثلاث أكوام بحرف «س» وهلم جرًا. مدينة ذات أبراج عالية، وكلها تدافع عن رسالة. يجلس رزا على الأرض، متقاطع القدمين، وسط هذا الحقل من الكتب. حتى وإن لم يستطع قراءتها بعد، فهو يجلس بينها، ويدنو منها كثيرًا. يسألني إذا كنت قد قرأتها جميعها.

– أعتقد ذلك، نعم.. الكل تقريبًا، لكن هذا الكتاب الكبير في مجلدين، الدون كيشوت، لم أتمكن من إنهائه أبدًا.

– وهذا؟

– تحت بركان مالكولم لوري؟ إنه المفضل عندي!

يقول لي رزا إنه لا يستطيع القراءة، بل يحاول، وبعد بضعة

سطور، تحلق روحه بعيدًا... إنها توتره. أقول له إنني أفهم بالضبط ما يشعر به. القراءة نوع من سباق التحمّل: في البداية، تكون صعبة ومملة ومثبطة، وبعد ذلك من خلال الإلحاح والمحاولة والإصرار على وضع قدم أمام قدم أخرى، عن طريق التمعن في الكلمة تلو الكلمة على طول السطور، ينبثق شيء ما.. يندفع العالم إلى داخلنا، ويتجلى كل شيء، وترتفع الأصوات كلها، ويخفق كل شيء.. كل شيء يرتجف.. كل شيء عاشق. أقول لرزا إنني عندما كنت صغيرة كرهت القراءة؛ كنت خائفة من الكتب.. لم أفهمها، ولم أنجح أبدًا في إنهاء قراءة كتاب واحد، لقد تأثرت كثيرًا بالأشخاص الذين رأيتهم يقرؤون: كانوا يقلبون الصفحات تلو الصفحات، كما لو أن شيئًا لا يحدث. بالمقابل كانت صفحات كتبي ثقيلة جدًا... ألحح يا رزا. اضرب ألف مرة على باب الكتب، وسوف تفتح. أقسم لك، ستملك ألف كوخ غابوي، وألف عالم.

العاشرة ليلاً

قضينا ساعتين مع عالمة النفس التابعة لجمعية سامو. التقيناها في مقهى موجود في الطابق الأرضي من البناية.. كانت السيدة جميلة، جميلة جدًا لدرجة أنني لم أستطع التركيز في كلماتها. تركت نفسي لهدهدة صوتها الحالم، الذي بدا وكأنها تركض حافية القدمين فوق مرج، وعلى رؤوس أصابعها. حريصة على عدم سحق أية أقحوانة. لم يفارق ماريوس ونوح شاشة التلفزيون، حيث تجري مقابلة في كرة القدم. كانت الشاشة معلقة وراء كونتوار المقهى، فاضطررت لتغيير مكانيهما ليتوقفا عن رؤية الشاشة. عندما سألتنا عالمة النفس عما إذا كنا نفكر في مستقبل رزا، وخاصة عندما سيغادرنا، قال نوح إن رزا لن يغادر بيتنا أبدًا، لأن بلاده تعيش في حالة حرب، ولا يمكننا أن نعيش بين أهوال الحرب.

14 يونيو

سأذهب قريبًا إلى برلين في إطار «إقامة للكتابة» تستضيف الكتّاب والمترجمين من جميع أنحاء العالم. أسأل رزا ماذا يريدني أن أشتري من مؤن غذائية، قبل أن أغادر. لم نضع أية قواعد تتعلق بنفقات الغذاء. الجميع يشتري ما يريد ويستخدمه كما يراه مناسبًا من الثلاجة والخزنات. بما أننا لن نتفق أبدًا، فإن التموين

الغذائي يصبح غريب الأطوار، في بعض الأحيان، فاشترى كل من فابريس ورزا وأنا يوم السبت الماضي علبة من عشر بيضات. الآن بعد أن عرفت حمية رزا الغذائية، أتأكد دائمًا من وجود الخيار والباذنجان والبطاطس وكمية كبيرة من الثوم وزيت عباد الشمس وصلصة الطماطم في المطبخ. أشتري الطماطم أيضًا، وثلاث علب من كعك السابليه بالزبدة التي يحب رزا تناولها مع شايه «دو غزال».

الليلة، أنا أواجه رزا وأتحدث معه أخيرًا عن نظامه الغذائي الذي يظهر أنه انتحاري جدًا. قلت له: إن الأكل، كما يفعل، أي تناول طن من الخضار والثوم، شيء ممتاز للصحة. من ناحية أخرى، فإن ابتلاعه مئة وخمسين غرامًا من الملح كل أسبوع، ونصف كيلو غرام من السكر المسحوق، ولترًا من زيت عباد الشمس سيضر قلبه وأسنانه.

- قنينة زيت، كم من الوقت عادة؟

- شهرين على الأقل! ينفجر رزا ضاحكًا ويعلن أنه سيدخل إلى صالة للألعاب الرياضية قريبًا.

«يا دانيال، إذا كنا نذهب إلى صالة للألعاب الرياضية، يمكننا شرب الزيت طوال اليوم! ثم إننا منذ ثلاثة أشهر، ونحن نبحث عن صالة رياضية مناسبة لك! لقد فحصناها جميعها بعدسة مكبرة... أعتقد أن الحقيقة، أنك لا تريد حقًا الذهاب إلى صالة للألعاب الرياضية...» يضحك رزا بتلقائية جميلة:

«لا! أريد الذهاب إلى صالة للألعاب الرياضية! وأريد الزيت أيضًا!»

باريس- باركودا- يعقوب

5 يوليوز

قضيت عشرين يومًا في برلين تحت وابل من الأمطار الغزيرة. وكانت كتابتي أيضًا مثل المطر: طوفانية، سقطت من السماء، غاضبة وجليّة.. كتبت نصف روايتي دفعة واحدة. حتى أنني وجدت وقتًا لكتابة محبوبي الشعر. قبل مغادرتي، أخبرني رزا أنه لا يعرف ما المهنة التي سيختار، ولا يعرف حتى اسم المهنة التي قد تناسبه؛ لذلك كتبت هذه القصيدة، وأنا أفكر في رزا.

الأب والابن

– هل فكرت في مهنة؟

– نعم، فكرت: لِمَ لا أصير درومیلییه[37]؟

– أعتقد أن الدروميلييين لا وجود لهم.

«يا أبي، في الحقيقة لم نرهم أبدًا».

– الميزة هي أنك ستكون الدروميلييه الوحيد، إنها مهنة رفيعة.

– هذا ما فكرت فيه بالتحديد، فكرت في مقامها الرفيع.

– لأن الكل يجهل وجودها، فلن يحاول أحد أن يستولي على

---

(37) كلمة ابتكرتها الكاتبة للدلالة على مهنة غير موجودة. وهي منحوتة من فعل dormir أي نام.

مكانك، هذا مطمئن.

- أنا ما يقلقني أنها سهلة للغاية.

- سيكون عبء العمل ضئيلاً، لكي لا نقول لا وجود له: الفكرة مريحة.

- أنت تعرفني، أنت تعرف كم أحب أن أستريح!

- سوف تترك لك مهنتك الوقت الكافي لممارسة هواياتك في تمضية الوقت: صباحًا، بعد الظهر، مساء، خلال جزء مختار من الليل. ناهيك عن العطلات المدفوعة الأجر.

- وقت الفراغ هو بالتأكيد أعظم جمال في مهنة الدروميلييه.

- وهل فكّرت في ماذا ستمضي أوقات الفراغ؟

- نعم فكرت، لماذا لا أكون جمركيًا؟

- أو مهرّبًا.

- إما هذه أو تلك، يجب أن نختار دائمًا.

* * *

أثناء فترة غيابي، جدد رزا غرفته. لقد رفع سريره في وضع عمودي وفرش سجادة شرقية وضع عليها زوجين من الأثقال ولوحًا لشد عضلات البطن. هناك أيضًا مرآة ذات قدم مكسورة، ومنضدة قديمة، وقميص معلق على الحائط، مرسوم عليه وجه يسوع بطريقة طباعة الشاشة التي تميزت بها لوحات أندي وارهول.

6 يوليوز

ارتجفت في مكاني وأنا أكتشف رزا في وسط الصالون، حاملاً حوض سمك بين ذراعيه.. كان ينتظرني، بلا حراك، ووجهه قاسٍ وجاد مثل صندوق بريد ذي قدمين. وبدأ يشرح لي أنه فكر أولاً في أن يشتري لنا كلبًا، ولكن لا يوجد مكان في البيت ليعيش الكلب فيه؛ لذلك اختار سمكة. وأنا أدنو منه، اكتشفت كائنًا صغيرًا أحمر ذي زعنفتين طويلتين. يسألني رزا إذا ما أعجبتني وأجدها جميلة. إنني في الحقيقة منزعجة جدًا من فكرة أن تمضي هذه السمكة أيامها في الدوران المتواصل داخل قفصها الزجاجي حتى اللحظة الأخيرة من حياتها، حياة لا معنى لها، لكنني وجدت نفسي أمطره بمجموعة من الأسئلة: «هل تعيش وقتًا طويلاً؟ ماذا تأكل؟ ألن تشعر بالملل، لأنها ستكون وحدها؟ ألا ينبغي أن نجد لها صديقًا؟ بناءً على نصيحة البائع، اشترى رزا حصى مزخرفة، ومنتجًا لتحييد الكلور والمعادن الثقيلة في الماء، وعلبة من الرقائق المجهري. من خلال بحثي على الإنترنت، عرفت أن هذه السمكة محاربة من السيام. تتغذى على الديدان والحشرات. يجب أن تأكل أربعة حبات من الرقائق في اليوم. يجب أن تبقى المياه في حوضها عند 25 درجة مئوية مع استخدام نظام التدفئة. وقبل كل شيء، لا ينبغي أن نحضر لسمكتنا مقاتلاً آخر من السيام ليشاركها الحوض، لأنه سينقضان ويلتهمان بعضهما بعضًا.

يحتل الحوض مكانًا بارزًا فوق الطاولة القصيرة في منتصف الصالون. ينظر رزا بحنان إلى سجينتنا ذات الشعر الأحمر الطويل ويحييها بلغة الداري.

- يجب أن نسميها، يقول رزا.

يقترح ماريوس «يعقوب» وأنا اقترحت «باراكودا»، لكن رزا يميل، بالأحرى، إلى تسميتها «باريس». وأخيرًا قررنا مناداة سمكتنا «باريس، باراكودا، يعقوب».

- باريس- باراكودا- يعقوب دو توركهايم، يؤكد نوح على الاسم.

9 يوليوز

عندما عدنا من السينما، وجدت أنا وفابريس سمكتنا باريس- باراكودا- يعقوب غارقة وسط عدد لا يحصى من الرقائق الحمراء، لقد كانت السمكة ناعسة وسط مئات الرقائق العائمة حولها.

لا أدري! هل أصلي كي تنجو السمكة أم أصلي كي تموت من عسر الهضم وتستريح منا؟

في هذا الصباح سأل فابريس رزا إذا كان هو من أعطى الرقائق الكثيرة للسمكة بدلاً من الأربعة المفروضة.

- نعم! أجاب رزا بمرح، كانت باريس جائعة!

ستيلا

13 يوليوز

نتناول أنا وفابريس العشاء بمفردنا، يخرج رزا من غرفته ويجلس مقرفصًا أمام الحوض. محدقًا في السمكة يقول لنا إنه شاهد شريط فيديو على موقع يوتيوب عن القتلى... وكابول... والدم... يطلعنا على ذراعه، ويرينا داخل طية الكوع، حيث الشريان العضدي ويكرر، «الدم، الدم» منذ ثلاث ليال، لم يستطع النوم من شدة التفكير في الحرب. فجأة يخشوشن صوته ويقول إنه يجب أن يجد أمه.. يجب أن يذهب للبحث عنها.. يجب أن يذهب إلى إيران. يخبرنا رزا عن اليوم الذي عبر فيه الحدود بين تركيا واليونان. كان لديه موعد مع أمه. لقد قرّرا الرحيل معًا إلى أوروبا. انتظر ساعات طويلة من غير جدوى. لم ير أمه مرة أخرى. أخبره رجل أنها عادت إلى إيران، لكنه لا يعرف ما إذا كان كلامه صحيحًا. يقول رزا: «الناس يقولون أيّ كلام». ينظر إلى السمكة ثم يقول بصوت منكسر: «أمي في البحر الأبيض المتوسط، ممكن. العديد من المهاجرين يموتون في البحر المتوسط»، أسأله عمّا يمكن القيام به. ماذا يفعل الذين انفصلوا عن أهاليهم بسبب الحرب والنفي للحصول على أخبار

عنهم؟ ماذا يفعلون كي يجدوا بعضهم بعضًا؟ يخبرنا رزا عن قناة تلفزيونية أفغانية تبث صورًا لأشخاص مفقودين، ثم ينهض فجأة ويختفي داخل غرفته.

بقيت أنا وماريوس جافلين أمام صحنينا، دون أن نقول كلمة واحدة، بينما كانت يدي ترتجف.

14 يوليوز

أجلسُ في مكاني المعتاد، في الصالون، أمامي جهاز الكمبيوتر، الموضوع فوق طاولة الفورميكا الزهرية. أفتح رسالة إلكترونية من مُدرّسة التقيتها في فصل الأول الثانوي خلال شهر يناير، ذلك اليوم ما زلت أتذكره جيدًا بدقة فوتوغرافية. حوّل الطلاب فصل مدرستهم إلى مسرح حقيقي.. لقد أعادوا بناء صحراء الحصى في روايتي «لحن الفشار»، ومتجر البقالة الشهير التابع لها، ورفوف من الدراي كورني، وعصائر مصنوعة من الذرة. حتى أنهم تكبدوا مشقة صنع ملصقات الدراي كورني وألصقوها على الزجاجات. كان هناك كرسي صالون الحلاقة بذراعين ينتظرني في منتصف الخشبة: كرسي الحلاق لتوم إليوت، بطل روايتي، ومن حولي، يقف الطلاب الذين وضعوا مساحيق وتنكروا بملابس ومثلوا الفصل الأول من الرواية.

كنت مأخودة ومبهورة بحساسية وفكاهة هؤلاء المراهقين. كيف أشكرهم على بعث الفرح في قلبي؟ كيف أشرح لهم ما

نشعر به، عندما نكتب كتابًا، في الكوخ الغامض داخل ذهنك، في زاوية حيث طاولة من الفورميكا الزهرية، وترى حقًا أن الكتابة تكتسيها الحياة؟ تقدمت فتاتان إلى الأمام تحملان قيثارة، وأدّتا أغنية من تأليفهما تستوحي عالم رواية «لحن الفشار». قالتا بأنها الموسيقى التصويرية للرواية. كان صوت غابرييل فخمًا وعميقًا وصخريًا. أما صوت ستيلا، فكان مثل رنين الفجر خافتًا ونقيًا. بعد العرض، سألني الطلاب أنواع الأسئلة كلها حول مهنة الكتابة. هل نجني أموالاً كثيرة؟ لا! هل سنكتب طوال حياتنا؟ آمل ذلك! ثم اقتربت مني ستيلا.. لقد أسرّت لي بحلمها أن تصبح كاتبة وسلمت لي مخطوطة كانت تعمل عليها منذ عدة سنوات. كان هناك في عينيها وصوتها شغف المشتاقين، ورغبة عارمة. بعد قراءتي روايتها، كتبت إلى ستيلا رسالة إلكترونية طويلة أستحضرُ فيها وصفها الطبيعة الأسترالية الجميلة والمقلقة. بعد ذلك، تراسلنا مرات عديدة خلال شهر مايو.

قرأت رسالة المدرسة الإلكترونية. لم أفهم على الفور ما أقرؤه. فجأة، انفجرت بالبكاء، وتشنج جسدي كله، كما لو أن يدًا عملاقة أخذت تهزني.. إذا رأيت شخصية تنهار بهذه الطريقة المثيرة للسخرية في فيلم، فلن يبدو الأمر صادقًا بالنسبة لي، لكنني لا أستطيع التوقف عن الاختلاج والنحيب.. ستيلا انتحرت.

دخل رزا إلى الصالون ووقف ينظر إلي.. أحاول أن أبتسم وأومئ له بأن يتركني وشأني. في المساء، تقدم نحوي وأمسك

يدي بقوة، ونظر إليّ نظرته العميقة والقلقة، فشرحت له ما حدث. بعد لحظة صمت، قال لي: «توجد الحرب في وطني، لكن في بلدكم الحرب موجودة داخل رؤوسكم».

أتساءل عن رأي رزا في الانتحار، وهو الذي يقاتل منذ سنوات عديدة للبقاء على قيد الحياة. قدم لي كوبًا من الشاي وتحدّثنا عن ستيلا. كلما استمعت إليه أكثر، أدركت أنه يعرف الكثير عن المعاناة الإنسانية كي يصدر حكمًا على أي شخص كيفما كان.

ملك عنيد

15 يوليوز

عندما قال لي رزا إنه يحب السفر خلال عطلته، أي قبلنا بثلاثة أيام.. اعتقدت أنني لم أفهم كلامه جيدًا. «إذا وصلت قبلنا إلى أنتيب، فلن أكون هناك لأريك أرجاء المنزل وأشرح لك كيف تسير الأمور... ستجد نفسك وحيدًا مع أبي وعائلة أخي التي ستأتي من البرتغال». بدا وكأن هذه الفكرة أبهجته؛ لذلك أردت أن أوضح له أنه من الغريب بعض الشيء أن يستضيفه والداي في منزلهما دون حضوري وفابريس، لكنني خشيت أن أحزنه، فأخبرته ببساطة أنه إذا وصلنا إلى أنتيب في اليوم نفسه، فسيكون ذلك عمليًا أكثر، يمكنني أن أساعده على اكتشاف المدينة والسوق والشاطئ... وردًا على ذلك، قال لي رزا: «إن والديك لطيفان جدًا». لا جدوى من المحاولة. كان رزا العنيد العظيم قد اتخذ قراره فعلاً؛ لذلك أخبرت والدتي أن رزا سيحل ضيفًا عليهم وحده قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدد.

لا يبدو أن هذا الخبر قد أقلقها، إلى جانب ذلك، لماذا ستقلق؟ رزا ضيف مثالي، ووالداي مضيفان مثاليان.. يغص منزلهما دائمًا بالأصدقاء من جميع أنحاء العالم: ولا أعتقد أن ضيفًا آخر سيبلبل حياتهم اليومية. ونظرًا لأن والدتي تتمتع بفن الحديث

حـول كل شـيء؛ فقـد نبهتهـا بلطـف: مـن الأفضـل ألا تخـوض فـي بعض الأمـور الشـخصية مـع رزا، والـذي يتحـدث بالـكاد عـن أسـرته وسـنواته فـي المنفـى. ومـن دون أن أخـوض فـي التفاصيـل، أوضحـت لهـا أن رزا شـاب رائـع، ذكـي ومنفتـح، لكنـه يميـل إلـى الانغـلاق فـي حالـة شـعوره بالاسـتياء، لا ينبغـي الاسـتعجال بأسـئلة غيـر واضحـة. «مـن تحسـبينني!» قالـت أمـي ثائـرة.

اتصلـت بـي والدتـي اليـوم، وعشـية سـفر رزا إلـى أنتيـب، وهـي فـي حالـة مـن الاضطـراب التـام. تشـاجرت مـع أخـي الـذي يرفـض الإقامـة مـع رزا فـي الطابق نفسـه الـذي اعتـاد الإقامـة فيـه فـي المنـزل. كمـا أنـه لا يريـد أن يسـتخدم شـخص غريـب الحمـام نفسـه مـع أبنائـه. تجمـدت صامتـة علـى الهاتـف. أخبرتنـي أمـي أنهـا غاضبـة وآسـفة. وأنهـا لـم تحتفـظ بالسـر: «قلـت لهـا أن رزا لـم يكـن غريبًـا منـذ أن أصبـح يعيـش بيننـا! أنـا، ربمـا غبيـة، لكننـي لسـت أنانيـة! ومـن غيـر المجـدي قـراءة صحيفـة الليبراسـيون[38] علـى الشـاطئ، إذا كان يجـب أن يتصـرف المـرء بهذه الطريقـة!» لقـد امتـلأت أعماقـي بحمـم مـن الغضـب والحـزن، والتـي، هـي فـي الأسـاس، لا علاقـة لهـا بأخـي، بـل بقصـة الحمـام التـي أقلقتنـي. لمـاذا نسـتضيف المهاجريـن فـي بلدنـا، وفـي منازلنـا؟

لمـاذا نرحـب بهـم فـي حماماتنـا؟ لأننـا نعتقـد أن أوروبـا مـا تـزال موجـودة.

---

(38) Libération صحيفة فرنسية انطلقت برعاية جان بول سارتر عام 1973. كانت ذات نزعة يسارية راديكالية، ثم تحولت إلى مبادئ اجتماعية وديموقراطية.

لا تسألني من هي هذه الـ «نحن»، نتعرف على بعضنا البعض دون الحاجة إلى ذكر أسمائنا. لقد نشأنا في هذه الـ «نحن» الأوروبية، وهي في الآن نفسه مكان ورؤية. احتفلنا بالذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية: التقينا في الساحة وقرأنا إعلان حقوق الإنسان والمواطن (كنت في الصف الثالث، ارتديت قلنسوة فرنجية مصنوعة من ورقة الكريب). اليوم، جرفنا التيار العنيف للنهر المعاصر، الذي يهدر بأن عصر التنوير في أوروبا قد انطفأ، وأن أوروبا ليست سوى سوق، حيث تباع السلع الغذائية باهظة الثمن ومنتهية الصلاحية، وهي المكان الضيق الذي يستمر أولئك الذين خسروا كل شيء لأنهم أرادوا عبور البحر إليه.. نرى على سطح النهر قطع الخشب التي تتجرف وتصطدم بالصخور.. نحن هذه القطع الخشبية، نحن هذه الطوافات المجنونة، نسمع صوتًا بعيدًا، حيًّا وميتًا.. إنه صوت بول فاليري الذي يسأل أعقاب الحرب العالمية الأولى، «هل ستصبح أوروبا كما هي في حقيقتها، وهذا يعني: رأسًا صغيرة للقارة الآسيوية؟ أم أن أوروبا ستبقى كما هي، أي الجزء الثمين من عالم اليابسة، لؤلؤة الكرة، وعقل الجسد الشاسع؟» سنستجمع قوانا، لننجح في الخروج من هذا التيار الجارف.

- والآن، ما العمل؟ تتساءل قطع الخشب المكدسة على الضفة.
- دعنا نبني شيئًا! تقترح قطعة خشب قديمة ومتينة.
- يمكن أن نصير حريقًا ضخمًا! يُرَى من القمر!

- هل أنت أحمق! سنحترق ونصير دخانًا!

- إذن، لم لا نصبح كوخًا، يقترح صوتًا متفردًا من فوق كومة الخشب.

- كوخ؟ وماذا سنفعل به؟

- نستضيف داخله شقاء العالم كله. قالت قطعة خشب غضّة، ثم تعالت الأصوات:

- كل شقاء العالم؟ كلام لا يقبله العقل! لن يتمكن من الدخول أبدًا!

- لا تمتلك أدنى شعور بالواقع، هذه الصغيرة!

وهنا تقف القطعة الخشبية الصغيرة وتقول: «استمعوا إليّ جيدًا. هناك الواقع وهناك ما نتوهمه ويتجلى لنا. وأنا أتحدث لكم عن كوخ وليس منزلاً. المنزل هو بناء حقيقي وهو بالضرورة ما هو عليه. يحتوي مساحة سكنية معينة، وعددًا من الغرف. في حين أن الكوخ هو مكان خيالي لا يمكن قياسه. للكوخ أفكار ويمكنه أن يستضيف ما لا يعد ويحصى. وإذا طفح الكوخ، فهذا هو الخيال. الكوخ هو المكان الشاعريّ السامي. كل من يعيش في الكوخ يقع في حلم أوروبا. وللعيش في الكوخ، يكفي أن تكون حسن السريرة». تصفق قطع الخشب، بالطبع ليست كلها، هناك المتشككون والساخرون الذين اقترحوا تعديلات على ما قيل، ولكن بعد يوم وليلة من النقاش، صوتوا واعتمدوا مشروع بناء الكوخ في النهاية.

18 يوليوز

هاتفتني أمي، زودتني بأخبار جيّدة عن رزا. على ما يبدو، أحب وجوده كثيرًا في أنتيب، إنه يساعد أمي في طهي الطعام. يذهب إلى الشاطئ ويتشمس تحت مراقبتها. يخرج في المساء، ويعود متأخرًا. يتجول في المدينة القديمة ويشتري ملابس صيفية من السوق. وفي الأخير، ينام في الطابق الأرضي من المنزل، الموجود في نهاية الحديقة. وبمجرد دخوله الغرفة، طلب من أمي ممسحة لتنظيف غرفته. قالت لي أمي: «ربما وجد المكان مغبرًا قليلاً» أمي، مثلي، لا تتقن الأعمال المنزلية. أخبرتني أن ماريوس، ونوح وأبناء عمومتهما «اخترعوا عبادة». بسطوا سجادة في الشرفة، وأضاؤوا الشموع، وبدؤوا بتلاوة الصلوات بعد ظهر يوم كامل وبلغة اخترعوها. قالت إن رزا، على ما يبدو، أذهلته هذه اللعبة.

19 يوليوز

أصبح رزا جميلاً. صار لونه أسمر، وسيماؤه هادئة وبهيجة، يرتدي قميصَ منتجع أنتيب البحري ذي اللون الأزرق الفيروزي. اشترى صندل الإصبع، ويبدو وكأنه يعيش هنا منذ ستة أشهر. ألاحظ هيأته المألوفة وهي تتجول في حديقة طفولتي، بين أشجار الموز وأشجار البرتقال. هذه الجنة تناسبه كثيرًا. رزا

وأمي منسجمان كما يحصل مع صديقين مقربين «لماذا أخبرتني أنه لا يتحدث كثيرًا عن حياته؟ تتساءل أمي مستغربة، قال لي كل شيء! هل تعلمين أنه حاول عبور البحر الأبيض المتوسط بين ألبانيا وإيطاليا، وأن مهرّبهم قلب القارب عن قصد في منتصف الليل! غرق كثير من الناس! كان رزا مجبرًا على السباحة في الظلام! هل تدركين ذلك! هل تعلمين ذلك؟» تتجلى لي صورة مجنونة لرزا. أراه، وهو في الرابعة عشرة من عمره، يسبح سباحة على الصدر بين الأمواج العالية وتحت ضوء القمر.

عندما اقترحت على رزا مرافقتنا بعد ظهيرة هذا اليوم إلى رأس الأنتيب، موضحة له أنه لا يوجد شاطئ في هذا المكان، وأننا نستحم في البحر بالقفز من صخرة عالية.. أخبرني رزا أنه لا يستطيع القفز في الماء أو السباحة دون وجود موطئ قدم له. قال لي إنه في الليلة التي قلب فيها المهرّب قاربه، سبح في الظلام دون أن يعرف في أي اتجاه سيذهب، وسط صيحات واستغاثات من رفاقه ورفيقاته من النازحين. تشبث البعض بالبعض كي لا يغرقوا، لكنهم تسببوا عن غير قصد في إغراق بعضهم بعضًا. يقول لي رزا إنه كان خائفًا للغاية. هذه الكلمة -الخوف- استخدمناها ألف مرة في حياتنا، لقد خفنا جميعًا في لحظة من اللحظات؛ لذلك أفكر في خطوط بريمو ليفي(39): «نقول: «جوع»، نقول: «تعب»، «خوف» و«ألم»، نقول:

(39) Primo Levi, Si c'est un homme, traduction Martine Schruoffeneger, Julliard, 1987

«شتاء»، ونقول: إننا نقول شيئًا آخر، الأشياء التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات حرة 1 (...)» نحتاج للتعبير إلى كلمة أخرى، كلمة تعبر عن العبودية والجنون، كلمة غير إنسانية بشكل حرفي، لتسمية هذا الخوف الذي يتحدث عنه رزا.

22 يوليوز

كل شيء سار بسرعة وبهجة عارمة. في الليلة الأخيرة، كان رزا بيننا، أعدت أمي وليمة استغرقت منها ساعات، طهت العشاء في طواجن من الطين. تناولنا العشاء في الحديقة، على ضوء الشموع، ثم بدأ أخي يحكي عن رحلته إلى إيران عندما كان شابًا. نطق رزا أسماء المدن والمناطق نفسها، التي ذكرها أخي، بهذه اللغة التي تبدو وكأنها تتدحرج على منحدر لطيف، مثل دحرجة آلاف من الحصوات النفيسة والمتعددة الألوان. ظهر أن رزا وأخي كانا سعيدين وهما يستحضران هذه الأماكن، وهذه الذكريات المنسية، التي أنستني غضبي من موقفه من رزا واختلاطه في الحمام مع أبنائه.

23 يوليوز

في الطريق إلى محطة القطار، وتحت ظل زقاق مقبب في أنتيب القديمة، قدمت لرزا بعض الأوراق النقدية:

- «معي نقود». قال رزا

- أنا أعلم أن معك نقودًا يا دانيال! لكنك ستبقى وحدك في المنزل طوال ثلاثة أسابيع... إنها فترة طويلة! عادةً أشتري لك الطماطم والخيار والأرز؛ وخصوصًا الزيت! من سيشتري لك لترات الزيت الخاصة بك؟ يضحك رزا ويقبل نقودي.

أحب أن أتخيل رزا في الشقة، ربما سيفتش أخيرًا في الأدراج.. لو كنت مكانه، فهذا ما كنت سأفعله. يمكننا تخمين كل شيء عن حياة الآخرين من خلال فتح أدراجهم واكتشاف الأشياء والنظام والاضطراب والصور والقصاصات الورقية والرسائل المكتوبة بخط اليد والأشياء المندسة والمخبأة. وهي عبارة عن سجلات عن الحياة. تتمثل مهمة رزا في سقي نبتة الطماطم الخاصة بنوح، والتي بلغ طولها الآن سبعين سنتمترًا مزهرة بالورود، وبطبيعة الحال إطعام باريس باراكودا يعقوب.

- أربع أو خمس رقائق في اليوم، يا دانيال... ليس مئة وخمسين! عدني بأن تفعل ذلك؟

- وإذا كانت جائعة جدًا؟

- هذه السمكة، معدتها صغيرة! وهي لا تجوع كثيرًا!

- أعتقد أنها تكون جائعة.

- يا دانيال، هل تعرف كلمة «عنيد»[40]؟

- عنيد! ما معنى كلمة عنيد؟

---

(40) Têtu: عنيد

- هـذا يعنـي أنـه عندمـا تؤمـن بفكـرة، لا تريـد أن تتخلـى عنهـا.
وأنـت، أنـت عنيـد للغايـة. أنـت ملـك العُنُـد!

- شكرًا، إميلي!

- لا شكر على واجب يا دانيال...

العودة الجامحة للنساء المنكشفات

5 أغسطس

ذهبت أنا وفابريس والأطفال إلى كورسيكا على متن العبارة، أنظر إلى الصحراء الزرقاء. البحر الأبيض المتوسط السخيّ لطفولتي.. أفكر في الآلاف من المهاجرين الذين لقوا حتفهم غرقًا. أحاول أن أتخيل هذا الحشد، آلاف الجثث، أتخيلهم أحياء، أتخيلهم يركبون دراجات هوائية، والشمس تغرب. أكتب في دفتر الملاحظات، على هاتفي الآيفون، هذه القصيدة الغريبة:

الشاعر

كان سعيدًا في البداية

بأن يسقط رأس آخر فوق رقبته

ويتحدث أحيانًا بهذا الفم وأحيانًا أخرى بالآخر..

ماذا يقولان لبعضهما؟

يا شواطئ الحروف الهجائية حيث ترتطم الأمواج

توءمه يمرره من خلال صوته

أيتها الحدود أكرهك، أنت تغرقين حرف الغريب.

منفعلاً، يهمس الرأس الأول

يا شاطئ النتانة، حيث اللفات والتعذيب بالماء...

ويقول الثاني، مستثيرًا بهذه الكلمات

يا شواطئ مستحدثة حيث يتدفق ضيفنا

في جوقة، وبالمعاناة نفسها

أيها الإخوة القتلى، أيها الشباب الميت قبل أن ترسوا قواربكم!

قريبًا سيأسف الشاعر لأن رأسه وحيد..

(في ذلك الوقت، كان يغرق الناس القادمون من الحرب)

16 أغسطس

العودة إلى باريس.. رزا في العمل. تشبه الشقة ثكنة عسكرية، لا شيء ملقى أو يتجاوز مكانه.. كل شيء مرتب بدقة ومنسق ومطويّ.. ليس هناك أدنى غبار فوق الأثاث، أجد مكنسة مساحة جديدة في أحد أركان الحمام: منذ ستة أشهر ورزا يتوعد بشرائها.

وجدت الثلاجة مكتظة بمنتجات مثيرة للدهشة: قواقع بورغون في تعبئة مفرغة من الهواء، مثلجات ذائبة لأنها لم توضع في المجمّد، نقانق صناعية باللون الأحمر المشرق، وزجاجة من الصودا خضراء مشعة، وأنبوب من المايونيز بطعم الكباب. يتهيأ لي أني إذا أكلت أيًا من هذه الأطعمة، فسوف أموت على الفور، وكأنني أطلق رصاصة من مسدس على رأسي. عندما كنت

صغيرة، قيل لي إنه يمكنك «الموت بسبب السجائر». لفترة طويلة، ظننت أننا لن نموت لفرط التدخين، ولكن لأننا كنا نصادف في يوم من الأيام سيجارة مسمومة، وهي التي تقتلنا على الفور. لقد تأثرت كثيرا بشجاعة ولامبالاة المدخنين الذين خاطروا بالموت مع كل عقب سيجارة. اعتبرت أبي محاربًا بطوليًا من نوع الكاميكاز[41]،لأنه كان يدخن علبة كاملة من نوع الغجر يوميًا.

هناك أشياء جديدة في الشقة، أبرزها «حاملة ورق المرحاض» الذي صنعه رزا باستخدام الأسلاك وربطها بالمبرّد أمام المرحاض، حتى لا نضطر إلى فتل ظهورنا أثناء محاولة الإمساك بأسطوانة لفافة الورق الموجودة خلف الظهر. وأيضًا هناك دهشة أخرى! تظهر في تمثال نصفي لامرأة عارية.. لم يكن من المجدي بالنسبة لي أن أخرج النساء العاريات اللائي طردت صورهن ورسوماتهن، كل ما عليّ فعله هو الصراخ: «اخرجن أيتها الفتيات من مخابئكن! الطريق متاحة!»

18 أغسطس

يطلب مني رزا أن ألحق به إلى غرفة الأطفال.. يقرفص ويمد يده تحت السرير ثم يخرج حقيبة كبيرة بيضاء.

هدية لماريوس ونوح. يفتح الغطاء: إنها آلة كاتبة تعود إلى الستينيات.. من نوع هيرميس ثلاثة آلاف.

لكي يصنع ماريوس ونوح كتبًا، يقول لي رزا.

---

(41) Kamikazeنسبة إلى الانتحاريين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية.

أبحث عن ابني

20 أغسطس

يطلب مني رزا الألف يورو التي ادخرتها له في الصندوق الأخضر المرقط بالأبيض، لا يخبرني بما يعتزم أن يفعل بها ولم أسأله، لا شأن لي بذلك.. إذا كان يريد شراء عشرين خيمة من خيام الكيشوا لتوزيعها على مهاجري «بورت دو لا شابيل»، فهذا حقه الأكثر لطفًا والأشد جمالاً. هذا المال هو كل ما يملك.. هذه هي مدخراته الوحيدة.. تمنيت لو احتفظَ بها لنفسه وبأنانية من أجله. ولكن ما الجدوى من محاولة تغيير رأي ملك العنيدين؟

21 أغسطس

يحمل رزا بين يديه صندوقًا ممتلئًا عن آخره، وجده على الرصيف بالقرب من قطار الأنفاق جوسيو.

- إميلي! كتب لك!

إنها روايات ناجحة لدان براون وبرنارد وبير وكثير غيرها. هناك حوالي خمسين رواية، وأنا التي تحاول باستمرار أن تجعل كتبها تستقر على الرفوف المزدحمة في الشقة، أشعر ببعض

القلق تجاه هذه الهدية. كل ثلاثة أشهر، أتخلص من عشرات الكتب: يساعدني طفلاي في عرضها فوق ملاءة مطوية، أضعها أسفل المبنى وفوقها نلصق على الحائط ورقة مكتوب عليها بأحرف كبيرة: «تفضلوا! تحيا الكتب!» ثم نراقب، نحن الثلاثة، مشرئبين من النافذة، إن المارة الذين يتوقفون، يبحثون داخل الملاءة، فيعثرون على سعادتهم، يضعونها في أكياسهم ويغادرون. عندما لا يكون، تؤخذ الكتب عن آخرها، يذهبا لاسترجاع الملاءة التي نخرجها معنا بمناسبة معرضنا المجاني المقبل. حتى وإن كنت لا أعرف ماذا أفعل بهذا الصندوق الضخم المليء بأفضل الكتب مبيعًا؛ فقد تأثرت بتصرف رزا، إنه يعرف أنني أعيش محاطة بالكتب، لهذا يجمعها ويهديني إياها، بينما ألاحظه يقترب شيئًا فشيئًا من الكتب أيضًا.

يسألني رزا إذا كنت أعرف لماذا يقرأ بعض الأشخاص والبعض الآخر لا يقرأ. كانت كلماته حرفيًا هي: «أنت تعرفين الناس مع الكتب نعم، الناس مع الكتب لا؟ أصبحت مزدوجة اللغة مع رزا - الفرنسية. أقول له: إن القراءة غالبًا ما تكون مسألة مآنسة. هناك أشخاص ينجذبون إلى الكتب منذ طفولتهم، رغم أن لا أحد في أسرهم يقرأ، ولا توجد كتب حولهم، ولكن في معظم الوقت، يقرأ الناس لأن أجسادهم، في شبابهم، خالطت الكتب والأشخاص الذين يقرؤون.

الكتب هي تاريخ الجسد. جسدنا هو الذي يأخذ الكتب. في أجسادنا تنمو الكتب، ومن جسد إلى جسد آخر تعبر الكتب.

23 أغسطس

يقدم الصليب الأحمر في البلدان جميعها التي يتواجد فيها مساعدة للأشخاص الذين فروا من بلدانهم، لكي يبقوا على اتصال بعائلاتهم، والبحث عنهم إذا فقدوا أثرهم. في الأشهر الأخيرة، وفي كل مرة أقترح فيها على رزا الاتصال بالصليب الأحمر، يرفض.. فهمت أنه حتى وإن كان يعاني بقسوة من انعدام أخبار عن أقاربه؛ فقد فضل تخيلهم على قيد الحياة، والصلاة لأجل أن يكونوا كذلك، بدلاً من معرفة خبر موتهم عن طريق امرأة مجهولة، وفقدان كل أمل. الأمل الأغلى من الواقع.. إنها القوة المضيئة والمشينة التي تتعلق بها حياة رزا. ومع ذلك، وافق هذا الصباح على تحديد موعد مع شخص مسؤول عن إعادة الروابط العائلية. دخلت أنا ورزا موقعًا على الإنترنت، أطلعني عليه متطوع في الصليب الأحمر، يدعى الموقع «أثر الوجه» [42]

هذا المكان مدهش حقًا؛ هناك الآلاف من وجوه الرجال والنساء.. وتحت كل وجه، هناك هذه الكلمات، التي تلخص أفق الحياة: «أنا أبحث عن ابني»، «أنا أبحث عن والدي»، «أنا أبحث عن عائلتي»... ندخل المعلومات المطلوبة (بلد المنشأ، العمر، الجنس) وأنا أضغط على «بحث»، انتابني دوار، ويا له من دوار... ماذا لو ظهر وجه أم رزا فجأة أمام أعيننا؟

لكنه في النهاية، لم يظهر.

---

(42) Trace the Face موقع للبحث عن المفقودين في الأماكن المضطربة

من أجل الأناقة

8سبتمبر

يدخل رزا إلى الصالون مبتسمًا بسعادة، ممسكًا بيده خوذة عمال البناء، ثم يخبرني أنه وجد وظيفة جديدة، وسيبدأ العمل غدًا.

- أي نوع من العمل؟

- تشطيب المباني!

أردت فعلاً أن أقول له ألا يقبل هذا العمل، لأنه سيعمل داخل الضجيج والغبار وسيضطر لحمل أحمال ثقيلة من الصباح إلى المساء.. سيعاني من آلام الظهر. وأقول له أيضًا أن العمل في حضانة البلدية أكثر راحة من موقع البناء هذا، لكن رزا كان يبدو سعيدًا جدًا...

9 سبتمبر

لو لم أوقف رزا في الردهة لأطلب منه أن يخبرني عن يومه الأول في العمل، فأعتقد أن رزا كان سيذهب مباشرة إلى غرفته، دون أن ينبس بكلمة واحدة. يجلس على كرسي أمامي وعيناه مغرورقتان بالدموع، لم أره أبدًا في هذه الحالة.. أخبرني أنهم تحدثوا معه بشكل سيئ، ولم يعاملوه باحترام، بل صرخوا في وجهه.

ولـم يفهـم رزا مـا كانـوا يتوقعونـه منـه. غبـار كثيـف يحـوم فـي الهـواء، يستنشـقه رزا مـع كل نفس.. طلـب منهـم قناعًـا واقيًـا، لكنهـم طلبوا منه أن يسـتعجل، لم يعطوه قناعًا.. كان يحمل عوارض خشبية طـوال اليـوم.. كانـت ثقيلـة لدرجـة أن شـخصين بالـكاد يسـتطيعان تحريكهـا عـن الأرض. قيـل لـه إنـه لا يعمـل بسـرعة كافيـة.. كانـت القفـازات الواقيـة واسـعة جـدًّا وتنزلـق مـن يديـه، فدخلـت الشـظايا الخشـبية فـي راحـة يـده. يسـألني إذا كنـت أعـرف كيفيـة إزالتهـا.. تمكنـت مـن إزالتهـا الواحـدة تلـو الأخـرى بواسـطة الملقـط.. كانـت يـده ترتجـف: «أنـا لسـت كلبًـا» يقـول رزا.

قرر أن يترك الورشة في نهاية الأسبوع.

مـا زالـوا يحتفظـون بعملـك السـابق، يـا دانيـال... يمكنـك العـودة مـن الغـد، إذا أردت ذلـك.

- سأكمل الأسبوع.

لا ألـح عليـه، قـد يكـون إنهـاء الأسـبوع هـو طريقتـه فـي أن يكـون أشـد قـوة مـن ازدرائـه لهـذا العمـل الكلبـي.

10 سبتمبر

تلقيـت مكالمـة مـن الصليـب الأحمـر، لقـد ألغـي موعـد رزا. تركّـز الفـرق جميعهـا جهودهـا لمسـاعدة ضحايـا الإعصـار الـذي دمـر جزيـرة سـانت مارتـان. نصحونـي بالاتصـال مـرة أخـرى خـلال شـهر. عندمـا أعلنـت الخبـر لـرزا، رأيـت ارتياحـه. سـلمته قصاصـة مـن الـورق مـدوّن عليهـا الرقـم للاتصـال بـه مـرة أخـرى. أعـرف أنـه لـن يتصـل.

في يوم من الأيام، سيفعل رزا كل ما في وسعه للمثور على أمه وإخوته.. قد يكون ذلك بعد ثلاثة أشهر، وربما بعد ثلاث سنوات.. هو وحده سيقرر الوقت المناسب ليعرف.

15 سبتمبر

شاهدت أنا وفابريس وطفلاي فيلم غوستبوستر[43]، واضعة طبقًا من معكرونة السباغيتي فوق ركبتيّ، عندما قدم رزا، منتصرًا، يدفع قطعة أثاث أمامه وهو يصيح:

- لقد وجدت مكتبة للكتب!

إنها رفوف للمطبخ خاصة بحمل الأطباق، ذات عجلات، مع درجين، وسطح عملي مبلط ورف في الطابق الأرضي. ينظر فابريس باستغراب، ربما يفكر مثلي في نفس الشيء: «اللعنة، ماذا سنفعل بهذا الشيء؟ لا توجد مساحة شاغرة في الصالون أو في غرفنا.

- يمكننا وضع الكتب داخل الأدراج! يقترح نوح.

لا يفهم رزا سبب رمي الناس الأثاث، مع أنه في حالة جيدة.

يلتقط كل ما يجده في طريقه.. غرفته صارت سوقًا للأثاث المستعمل المضحك والمخلخل.

(43) صائدو الأشباح: هو فيلم كوميدي أُنتج في الولايات المتحدة، وصدر سنة 1984. الفيلم من كتابة دان أيكرويد.

16 سبتمبر

هل رأيت قصة شعر دانيال؟ يسألني فابريس.

- لا، لكنها لن تكون أسوأ من المعتاد.

- نعم، نعم...

عمومًا، قصة رزا عجيبة، تشبه قصعة تمر فوق أذنيه، مع ثقوب صنعت بواسطة آلة جزّ الشعر على جانبي خلفية جمجمته.. الثقوب ليست موجودة عن طريق الصدفة، بل «من أجل الأناقة»، كما أوضح لي رزا الذي يقص شعره مرة، على الأقل، كل شهر.

* * *

أجلس إلى طاولة الصالون لأكتب قصيدة:

تقول

الحب

انتهى

مزقوا دون ألم

الكتب من وسطها



وخبز الصباح الطازج

وعنواننا

والأطفال أيضًا إلى اثنين

وتحت السرة

بالتحديد

أرفع رأسـي وأبكـي.. حلق رزا شـعره بالكامل؛ ممـا منحـه مظهـرًا قاسيًا ومظلمًـا ورهيبًـا. بدت عظـام وجهـه أكثـر بـروزًا مـن أي وقـت مضـى. يديـر يديـه فـوق جمجمتـه الصلعـاء، ضاحـكًا ومُحرَجًـا:

- هل هذا جيد؟

- إذا كنت تحب ذلك، يا دانيال، فهذا جيد.

- وأنت تحبينه؟

- كنـت أفضـل حقًـا أن يكـون لديـك شـعر... الـرأس الحليـق يجعلنـي أفكر فـي أشـياء حزينـة.. هـذه هـي المـرة الأولـى التـي تحلـق فيهـا رأسـك؟

- نعم، إنها المرة الأولى.

- ولماذا تريد اليوم أن تفعل ذلك؟

- لا أعرف، ربما من أجل الأناقة.

مهووس المنيهوت

22 سبتمبر

انتصب رزا أمامي في المطبخ وطلب مني خمسين يورو.. أدركت أنه أنفق مدخراته الألف يورو وراتبه الشهري، شعرت بغضب غريب يتصاعد من أعماقي، أردت أن أعاتب رزا لأنه وضعني في هذا الموقف، لكنني اندهشت لسماعه يقول هذه الكلمات: «إذا كنت تريدين مني أن أشتري لك أشياء، طعامًا، أو أي شيء آخر... سأشتري كل ما تريدينه، لكنني لا أريد أن يكون هناك أوراق نقدية بيننا. ذهبت للحصول على المال من الموزع الآلي في الشارع. عندما عدت إلى المنزل، كان رزا متوترًا للغاية.. قدمت له المال وسألته بطريقة مفاجئة وفظة تقريبًا، كيف فعل لينفق ألفي يورو خلال أسبوعين؟ أخبرني أنه اشترى هاتفًا خلويًا بقيمة ستمئة يورو ليعوض الهاتف الذي سرق منه، وهاتف آخر، بنفس السعر، لصديق لا يملك هاتفًا، وخيمتين لأجل المهاجرين، وتذكرة قطار لإيراني كان مضطرًا للسفر إلى مرسيليا، كما أعطى سبعمئة يورو لأفغاني صادفه في بورت دي كليجنانكورت، حتى يتمكن من العودة إلى كابول ويتزوج.

تمنيت أن أقول لرزا إنه إذا تصرف الجميع مثله، فلن يكون

هناك المزيد من المشردين في شوارع باريس. لن يكون هناك المزيد من مطاعم القلب[44]، ولا المزيد من مراكز الإيواء في حالات الطوارئ، ولا المزيد من البؤس، لكنني كنت غاضبة من أن يستغل الناس كرمه ويأخذون أمواله منه.. هذا المال الذي يكسبه بواسطة التنظيف من الصباح إلى الليل؛ لذلك كل ما استطعت قوله إنه من الغباء كليًا شراء الهواتف المحمولة بستمئة يورو. هذا باهظ جدًا. صاح رزا: «أنا لا يعنيني! أنا لا يعنيني، إذا كان الهاتف بستمئة يورو، وما إذا كان هذا باهظًا جدًا! لا يعنيني هذا! أنا وحيد!»

هذه العبارة -«أنا وحيد»- مزقت قلبي.

6 أكتوبر

قضى رزا ساعة برفقة الاختصاصية الاجتماعية المكلفة بحالته. كان يرتدي قميصًا أبيض يناسبه بشكل مذهل.. بدا دانيال وكأنه كريج في فيلم جيمس بوند. نما شعره وبرز صدره لفرط التمارين الرياضية اليومية الخاصة بكمال الأجسام، بحيث تضاعف حجم عضلاته.. قلت له إنني أجده أنيقًا جدًا بقميصه.

- اختصاصيتي الاجتماعية تقول الكلام نفسه.

- حقًا؟ هل قالت لك اختصاصيتك الاجتماعية إن قميصك جميل؟

---

(44) Restos du Cœur جمعية خيرية شهيرة

- نعم، قالت لي: «أنت وسيم» إنها تحب قميصي.

- لكنها لا تحب قميصك! إنها تغازلك!

يخفي رزا ابتسامته بيده.. لم أره أبدًا مورّد الوجه خجلاً.

قرر أن يرتدي القميص نفسه غدًا، يجب أن يجري مقابلة توظيف لشغل منصب عامل صيانة في مدرسة ثانوية في إيفلين.. إحدى مهامه تتوقف على إعداده وجبات الطعام لطلاب المدارس الثانوية.. يأمل من كل قلبه أن يقبل.

12 أكتوبر

يشعر رزا بالتهاب في الحلق وارتفاع في درجة الحرارة.. حالما يعاني من حالة مرض، لا يسعني إلّا أن أعتني به كما لو كان طفلاً.. أحضر له الماء المنعش، والشاي، ودوليبران، ومحلول الدواء وحلوى العسل. هناك شيء ما مبهم في هذه الإيماءات التي تتكرر وتتكرر مرة أخرى. لعبة قديمة جدًا، حيث تشعر الأمهات بالقلق كلهن وهن ينحنين على جبين شديد الحرارة. أخبرني رزا أن أمه كانت تعرف طريقة لعلاج الذبحة الصدرية، بواسطة طريقة لتدليك الحلق فقط.

19 أكتوبر

يوم مفرح! وقّع رزا عقده من أجل وظيفة عامل الصيانة في المدرسة الثانوية. هنأناه وشربنا الشمبانيا للاحتفال بنجاحه،

حتى ماريوس ونوح ارتشفا قليلاً منه.

- كأس صغيرة، قلت لهما.

- ليست أكثر مما يوجد في كأسك.. طمأنني نوح.

25 أكتوبر

اشترى رزا خيمتين لعائلة رومانية تعيش عند مخرج محطة مترو مونج.. رجل وامرأة في الثلاثينيات من عمرهما، وصبيان في سن الالتحاق بالمدرسة الابتدائية.

- هل كانوا سعداء عندما أعطيتهم الخيمتين؟

- نعم أنا سعيد جدًا!

كم هو مشحون بالمعنى سوء الفهم الجميل الحاصل بيننا.

26 أكتوبر

«لقد تعلمت كلمة اليوم»، قال لي رزا. كلمة جيدة جدًا هي «المنيهوت»[45]!

- المنيهوت؟ الجذور التي تؤكل؟

- لا... الشخص المحب للتنظيف بكثرة.

---

(45) من عادة رزا أن يخلط بين الكلمات الفرنسية المنيهوت Manoicو maniaqueالمهووس.

- صحيح! مهووس! نعم، عندما نحب أن يكون كل شيء مرتبًا ونظيفًا جدًّا! أنا، على سبيل المثال، لست مهووسة كثيرًا...

- أنت لست مهووسة على الإطلاق! يصيح رزا.

لقد كانت حقًّا صرخة من القلب.. تملكتني نوبة من الضحك، انتقلت في الحال إلى رزا. إنه يشبهني: عندما يضحك بشدة، تمتلئ عيناه بالدموع.

Fluctuat nec mergitur [46]

6 نوفمبر

عدنا أنا وفابريس وطفلاي من كورسيكا؛ فوجدنا عطر رزا ينتشر في أنحاء الشقة جميعها. ما إن وضعت حقيبتي في الصالون، حتى لفت انتباهي شيء فوق حوض باريس-باراكودا-يعقوب، توجد منحوتات من الأسلاك معلقة على الحائط وتمثل: اسما ماريوس ونوح، بالإضافة إلى الحرف الأول من اسمي، والحرف الأول من اسم فابريس مدسوسة داخل القلوب.

* * *

بدأ رزا عمله الجديد، وهو سعيد به.. يحتاج إلى ساعة ونصف كي يصل إلى الثانوية ومثلها كي يعود إلى المنزل مساء.

يقول لنا: إن أفراد فريقه «لطيفون جدًا جدًا جدًا»، يلفظ كلماته وهو يقطع برقة كلمة «جدًا». يخبرنا أنه يبدأ بتنظيف الفصول الدراسية والحجرة ويستغرق ذلك ثلاث ساعات، ثم يساعد الطهاة في إعداد الغداء لطلاب الثانوية، ثم يأتي وقت غسيل الأواني، وأخيرًا، ينظف قاعة الطعام.

---

(46) هي عبارة لاتينية تعني الإصرار والتحدي «لقد هزتها الأمواج، ولكنها لن تغرق»، والتي تعد بمثابة شعار مدينة باريس في المصائب والنائبات.

بعد صمت، من التردد لقول شيء آخر، استغرقه في عض شفتيه، وهو يبتسم ابتسامة مشرقة: «في الفريق، قابلت فتاة، إنها مثل أختي!».

9 نوفمبر

يعود رزا في الساعة العاشرة مساء من كل ليلة.. المسافات الطويلة على شبكة السكة الحديدية السريعة تجعله متعبًا. عيناه تحيطها دوائر بنية وانتفاخ على الوجنتين. في الصباح، يرن منبه ساعته في الرابعة والنصف. ينقسم يومه إلى جزأين: في الصباح وحتى وقت الغداء للتنظيف والمساعدة في الطبخ، ثم في الزوال، لتحضير وجبة التلاميذ القاطنين الذين يقضون الليل في المدرسة الثانوية. سيستغرق الذهاب إلى المنزل بين مرحلتي العمل ثلاث ساعات؛ لذلك يمكث رزا في مقر عمله. عندما أستيقظ في الساعة الرابعة صباحًا لتصحيح مسودات روايتي، نلتقي ببعضنا كل صباح ونهمس، لبعضنا:

«صباح الخير دانيال!

— صباح الخير إميلي!

– هل نمت جيدًا؟

في حين أن المنزل كله ما زال يحلم.

11 نوفمبر

لم يخرج رزا من غرفته. لم نسمع أدنى صوت خلف بابه. اعتقدت أنه ما زال نائمًا. قلت لماريوس ونوح أن يلعبا بصمت، وأن يسيرا ببطء على الأرضية الخشبية، لم أتوقف عن الهمس... وتكرار رجائي: «الصمت... الصمت... دانيال نائم! يجب أن نتركه يرتاح بعد أسبوع من العمل...»

وبينما نحن نتحدث بصوت خافت متجنبين ألواح الأرضية الخشبية الأكثر صريرًا، فتح الباب فجأة: إنه دانيال.. كان قد غادر عند الفجر ليقوم بنزهة. يشرح له نوح سبب دهشتنا: «كنا نظنك نائمًا! لقد مرت ثلاث ساعات ونحن نحاول ألا نحدث ضوضاء، حتى لا نوقظك! «أوووه! الضوضاء لا تزعجني! قال رزا معتذرًا. قال إنه يخرج كل صباح، وهو يمشي على أطراف الأصابع كي لا يزعجنا خلال نومنا.

13 نوفمبر

في جميع أنحاء باريس، يمكن قراءة Fluctuat nec mergitur، شعار المدينة على ألواح كبيرة. «لقد هزتها الأمواج، ولكنها لن تغرق». قبل عامين، قتل الإرهابيون مئة وتسعة وعشرين شخصًا في باريس. في تلك الليلة، تلقى أحد الأصدقاء رصاصة من مسافة قريبة في الباتاكلان. ولأن سفينة الشعار لم تغرق؛ تمكّن الصديق من النجاة. كنت غارقة في أفكاري وأنا أسند رأسي

على كتف فابريس، لم ألاحظ أن رزا دخل للتو إلى الصالون وجلس على الأريكة أمامنا «أريد أن أتحدث إليكما» قفزت من مكاني وعدّلت جلستي. أخبرنا رزا بصوت قلق أن مديره رأى أنه يقوم بعمل جيد للغاية، ولكي يتجنب رحلاته الطويلة في القطار المحلي السريع؛ قدم له غرفة في المدرسة الداخلية مجانًا.

- لكن يا دانيال، هذا خبر رائع! إنه أمر مدهش!

شعرت وفابريس بسعادة غامرة.. رد فعلنا كان حماسيًا، فارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه رزا. في الأشهر الأخيرة، أخبرني مرارًا وتكرارًا أنه يرغب في استئجار شقة في باريس أو في الضواحي عندما سيترك المنزل. أخبرني أنه بفضل عقد عمله، لن يجد صعوبة في العثور على استوديو. كلما تحدث معي عن هذه الشقة، كان بطني ينعصر. كيف يمكن استئجار استوديو بسعر سبعمئة يورو عندما يكون أجرنا ألفًا ومئة يورو شهريًا، ولا نملك عقد عمل دائم، وننتمي إلى بلاد تسمى أفغانستان ولا نملك غير تصريح إقامة هو بمثابة بطاقة الهوية؟ هذا السؤال عما سيأتي من الأحداث كان يقلقني منذ أن وصل رزا إلى منزلنا.. أخشى دائمًا أن يكون هذا الوقت المشترك عُشًّا هَشًّا، وضع على طريق المنفى الذي لن ينتهي أبدًا. عش تلك الحياة الظالمة العنيفة التي ستسحقه بسرعة. أزالت يد سماوية للتو ثقل طن من على كاهلي.. حتى فابريس الذي يعرف كيف يخفي عواطفه، بدا منفعلاً. هذا الخبر مذهل، لدرجة أن جزءًا من ذهني ما زال يرفض تصديقها.

- يا دانيال، أنت تعمل في هذا الفريق منذ أسبوع فقط ويقدم لك المدير إقامة مجانية... إنه لأمر رائع! هذا جنون! كيف حدث هذا؟!

يحاول رزا أن يجيبني، لكنني لا أفهم شرحه.. إنه يبحث عن كلمة محددة.

- عندما تذهبون إلى كورسيكا، وأنا أبقى في الشقة في باريس طوال أسبوع... ماذا تفعلون؟ ما الكلمة التي تصف ذلك؟

- نتركك؟

- لا! ليس الترك.. عندما تغادرون إلى كورسيكا وأنا هنا في الشقة، مع أجهزة الكمبيوتر ودفاتر الشيكات، وكل ما تملكونه...

- آه! نحن نثق بك!

- نعم، إنها الثقة! مديري يثق بي.

هذا التحول إلى الفرح، لن أنساه أبدًا.

هزت الأمواج رزا، لكنه لن يغرق.

غرفة دانيال

19 نوفمبر

رزا سيفادر.. دانيال سيغادر.. أغراضه في المدخل.. سيترك لنا جميع الأثاث والأضواء والمرايا التي اختارها صدفة من الشوارع. أحضر اثنين من أصدقائه الإيرانيين لمساعدته في حمل أمتعته. طلب دانيال منهما دخول الشقة، لكنهما كانا متهيبين. أصافح الشاب الذي دخل أولاً، كان جماله مذهلاً. عبر إلى الداخل غاضًا بصره. قال له دانيال شيئًا باللغة الفارسية وبنبرة من اللوم، فتطلع إليّ الشاب وأخبرني باسمه: «رحيم». يقوم دانيال بترديد العبارة مرة واحدة، معبّرًا بوضوح: «قل: اسمي رحيم»، الأمر يشبه وكأن أحد الوالدين اكتشف أن ابنه لم يكن مهذّبًا بما يكفي. حدثني دانيال كثيرًا عن صديقه. في شهر مارس، كان رحيم يعاني من ألم أسنان جهنمي.. ولأنه لا يتوفر على وثائق أو بطاقة التأمين الصحي، لم يجرؤ على الذهاب إلى المستشفى، فأخبرني دانيال عن وجود عيادة أسنان متنقلة على متن حافلة، توفر رعاية طبية مجانية، ثلاث مرات في الأسبوع، لأشخاص مثل رحيم لا يتوفرون على الضمان الاجتماعي، لكن

فـي اليـوم الـذي شـعر فيـه رحيـم بهـذا الألـم العنيـف فـي ضرسـه، لـم تكـن الحافلـة فـي الخدمـة، فتعيـن عليـه أن ينتظـر ثمانـي وأربعيـن سـاعة. قضـى دانيـال الليـل فـي الخـارج برفقـة رحيـم. أخبرنـي أنـه لـم يسـتطيع فعـل أي شـيء لصديقـه، إلا البقـاء إلـى جانبـه وهـو يبكـي، ويُربّـت علـى ظهـره. أشـعر بالخجـل مـن قـول ذلـك، لكننـي تخيلـت أن الشـاب أسـنانه نصفهـا مهـدّم، لكـن رحيـم يملـك أسـنانًا مثاليـة.. عينـاه سـوداوان بعذوبـة رائعـة.. يملـك مظهـر راقـص باليـه.

أرى الشـباب الثلاثـة وهـم يخرجـون الحقائـب والأكيـاس عنـد صحـن الـدرج. حـان الوقـت، حـان الوقـت حقًـا.. أتذكـر اليـوم الـذي وصـل فيـه دانيـال.. أنـادي ماريـوس ونـوح اللذيـن قـالا لـه وداعًـا بصوتهمـا البهيـج ومـن دون افتعـال عواطـف حزينـة. يجلـس دانيـال علـى الأرض، كمـا يفعـل دائمًـا عندمـا يريـد أن يقـول شـيئًا مهمًـا.. يأخـذ نفسًـا ويقـول ببـطء شـديد: «شـكرًا، شـكرًا جزيـلاً... «لقـد امتنعـت عـن مقاطعتـه، لأقـول لـه: «نحـن مـن يقـول لـك شـكرًا!» وهـا هـو يقـول هـذه الكلمـة التـي لا يمكـن تخيلهـا: «سـامحوني عـن كل المـرات التـي لـم أسـتطع فهـم كلامكـم»

سامحوني

عن

كل

المرات

التي لم أستطع

فهم كلامكم.

وبحركة عاطفية ومرتبكة، دعكت ذراعه وقلت بصوت مرتفع: «أوه، لا، يا دانيال! لا تقل هذا! أنت تفهم كل شيء! لا أحد يفهم كما تفهم أنت!»

يبتسم ويغادر.

لقد ذهب.

* * *

- هل سنرى دانيال مجددًا؟ يسأل نوح.

- بالطبع سوف نراه مرة أخرى!

- وإذا لم يجد مكانًا للنوم، فسنطلب منه العودة.

- بالطبع، يا نوح.

- إذن، لا توجد مشكلة!

- لاتوجد أية مشكلة.

- إذن، لماذا أنت حزينة يا أمي؟

يدخل طفلاي غرفة دانيال، يجلسان على حاشية السرير وينظران حولهما.

- نوح، هل نعيد ألعابنا إلى مكانها؟

- وإذا عاد دانيال، من الأفضل ترك كل شيء كما هو.

- لن يعود على الفور. سيعيش في المدرسة الثانوية.. علينا فقط أن نعيد كل شيء كما كان من قبل، وعندما يعود دانيال، نزيل الأشياء بسرعة ونعيد إليه غرفته من جديد!

- أنت محق يا ماريوس.. سنفعل ما قلت.

الصفحات البيضاء

بعد أربعة أشهر، 11 مارس 2018

جاء دانيال للاحتفال بعيد ميلاده في المنزل. وقبل وصوله، كان طفلاي متحمسين جدًّا.. رقصا على نغمات أغنية الإسكندرية ألكسندرا، وألقيا وسائد غرفة دانيال كلها في الهواء. منذ أن غادر دانيال، ونحن نطلق على الغرفة الوسطى اسم «غرفة دانيال». من قبل، لم يكن لها اسم. ساعدني طفلاي في تحضير كعكة اللوز. اشترينا الشموع التي تطلق الألعاب النارية، وأهرامات الحلوى، وكعكة الليمون التي يحبها دانيال. أعددنا هدية لدانيال، عبارة عن ألبوم صور، لففناه في ورق الهدايا وطعّمه نوح بالقلوب والتيرانوصورات.. نجد في الألبوم صور دانيال وهو يدخل مياه شاطئ الحصا في أنتيب، وهو يتأمل منحوتة العنزة في متحف بيكاسو في أنتيب، وهو يلعب كرة القدم مع الأطفال في مُدرّج أرين دو لوتَيس، وهو يلعب الشطرنج مع نوح على طاولة الفورميكا الزهرية... الصورة الأخيرة هي لقطة مكبّرة لسمكة باريس باراكودا يعقوب.

يقلب دانيال الصفحات وهو يردد: «يا للعجب! يا للعجب!» كلماته جميلة وعذبة ومدهشة.

أحطنا به، نحن الأربعة.

- يا دانيال، هل رأيت الصفحات البيضاء المتبقية كلها؟ يسأله نوح.

سيكون بمقدورنا إضافة صور أخرى كثيرة.



المحتويات:

DE EMILIE DE TURCKHEIM



تقدم إميلي دو توركهايم الواقع دون مساحيق لتظهر لنا وجوهه وأقنعته كلها: تشوهات الحرب وحياة التشرد بعدها، أوضاع اللاجئين في فرنسا، الرحلة الشاقة والقاتلة التي يخوضونها بأجسادهم وأرواحهم لكي يبقوا على قيد الحياة.

قالت الروائية النوبلية سفيتلانا أليكيفيتش أثناء تسلمها جائزة نوبل أمام الأكاديمية السويدية: «كم من الروايات تختفي دون أثر لأننا لم نعرف كيف نستمع إلى العالم؟». هناك شبه كبير بين كتابة سفيتلانا أليكيفيتش وإميلي دوتوركهايم يبرز هذا التماهي في رواية الحقيقة حول العالم، سواء بلغة توثيقية أو أدبية، لأن المهم هو أن نكتب صوت العالم. كيفما كان القالب الأدبي، فيجب أن يكون المحتوى أدبًا مقلقًا ومزعجًا يأبى الاستكانة وإراحة الضمير، يتجاوز الصمت والمسكوت عنه لكشف الحقيقة التي قد تصدم القارئ وترجّه رجًا كي يعيد النظر إلى العالم بعين مغايرة.


ISBN 978-603-91475-4-1



